Coptology
ⲠⲀⲚⲞⲨϢ ⲚⲢⲈⲘⲚⲬⲎⲘⲒ

د. حنين عبد المسيح
أو

منظومة العصر الوسيط في المسيحية المصرية

دعوة للمراجعة

دكتور
جورج حبيب بباوي
٢٠٠٩

www.coptology.org

جدول المحتويات

مقدمة ٥
الفصل الأول: ٧
جوهر المشكلة في لاهوت العصر الوسيط ٧
وحدة السماء والأرض تحت رأسٍ واحدٍ هو أقنوم الكلمة المتجسد: ١١
إذن، هل يقدَّم البخور للصليب؟ ١٨
الفصل الثاني: ٢٠
قصور تقوى العصر الوسيط عن استيعاب الرؤية الأرثوذكسية لله والإنسان ٢٠
ماذا فعل بنا العصر الوسيط؟ ٢٠
الحقيقة هي أن المسيح حالٌّ فينا ومعنا بلا رموز: ٢١
أولاً: اعتبار كبرى العقائد من أحداث الماضي البعيد ٢٢
ثانياً: اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد ٢٥
ثالثاً: أكبر كذبة في التاريخ الكنسي ٢٧
رابعاً: الاستخدام الإعلامي والصحافي لكلمة "بدعة" ٢٩
تطرف العدمية Nihilism ٣٣
الأيقونة – الرسم – العلامة – الحقيقة: ٣٤
الخطر الأول: ٣٥
الخطر الثاني: ٣٦
الخطر الثالث: ٣٦
الفصل الثالث: ٣٧
الأيقونة والحقيقة ٣٧
الكاهن – الهيكل – المذبح – الذبائح ٣٨
كهنوت المسيح حقيقة ثابتة مؤكدة ٣٨
المسيح هو هيكل العهد الجديد ٣٩

الهيكل الجديد والذبائح الناطقة: ٤٢
الكنيسة علامة ومثال السماء: ٤٣
الكنيسة هي مكان وليمة الحمل والعرس الإلهي: ٤٥
تكريس المذبح ٤٦
تجديد العهد والمذبح الجديد: ٤٨
تطابق المرئي والمنظور مع غير المنظور: ٤٩
الفصل الرابع: ٥١
المذبح في الكنيسة الجامعة ومنظومة الأصولية الإنجيلية ٥١
التاريخ الكنسي يؤكد وجود المذبح "θυσιαστηριον". ٥٤
الخلفية الحضارية والثقافية لمنظومة العصر الوسيط الأوربي ٥٦
إعادة اكتشاف الآباء والقديس أوغسطينوس في مطلع القرن العشرين: ٥٧
رفض التاريخ الكنسي هو فضيحة للعقل الأصولي: ٥٨
الأصولية الكتابية ورفض حرية المحبة: ٥٩
الترتيب هو الطقس حسب التعليم الرسولي: ٦٠
الاهتمام بالوثنية: ٦٢
الفصل الخامس: ٦٧
ماذا يعني تجسد ابن الله في الحقيقة والواقع؟ ٦٧
الشركة والشِّرك والوثنية: ٧٢
غياب الشركة من راديكالية الإلغاء: ٧٣
ما هو جوهر المشكلة؟ ٧٣
الحد الفاصل بين راديكالية التوحيد وشركة الثالوث: ٧٤
ما هو نوع هذه العلاقة حسب التعليم المسيحي الأرثوذكسي؟ ٧٤
الصورة الإنسانية حسب راديكالية التوحيد: ٧٧
أوصال الشركة الإلهية الإنسانية حسب الكلمة المتجسد: ٧٨
ما هي الأوصال التي قُطعت باسم الكتاب المقدس؟ ٨٠

مثال على غنوصية الأصوليين: ٨١
أولاً: ما هو مضمون الذكرى في العهد القديم والجديد؟..... ٨٢
ثانياً: التسليم الرسولي لعشاء الرب..... ٨٣
تحذير: ٨٣
"اصنعوا هذا لذكري" (١كو ١١: ٢٤ – لوقا ٢٢: ١٨ - ١٩) ٨٤
"فصحنا المسيح قد ذبح لأجلنا" (١كو ٥: ٧)..... ٨٥
الفصحُ عيدٌ دائم ٨٧
تداعيات فصل الرأس عن الجسد:..... ٨٨

مقدمة

نشر د. حنين عبد المسيح مجموعة كتيبات تحت عنوان كنت أرثوذكسياً والآن أبصر، ناقش من خلالها وجهة نظره عن كهنوت الإكليروس، وما أسماه عبادة الأصنام في الكنيسة الأرثوذكسية، وأيضاً ما اعتقد أنه بدعة الرهبنة.

وكنا قد نشرنا مقالاً على موقع www.coptology.com بعنوان: "الصليب هو قوة الحياة التي أخذناها في المعمودية، وفي مسحة الميرون"، أوضحنا فيه أن الأساس الذي استند عليه فكر د. حنين عبد المسيح هو لاهوت العصر الوسيط الذي ما يزال يعيث فساداً في أرجاء المسيحية المصرية. وبطبيعة الحال لم يكن هذا المقال بكافٍ لتوضيح ما انتهينا إليه؛ لذا تجيء هذه الدراسة لنتناول من خلالها بالتفصيل تلك الأصول التي تحمل عبء هذه الأفكار؛ ولنؤكد على أن كل ما نشره د. حنين عبد المسيح – ما عدا الهجوم على الرهبنة – هو ثمرة العصر الوسيط وتقوى العصر الوسيط.

كما يهمنا أن نؤكد على أن د. حنين ليس فريداً في بابه، بل هو في ذلك واحدٌ من ألوف الأقباط، إن لم يكن هو صوت الأغلبية التي شربت من "مستنقع العصر الوسيط" الذي أفرز الفكر القبطي المعاصر الذي بدوره أخذ برواسب الثقافة المصرية العصر أوسطية التي تكاد تهرب من الاعتدال إلى التطرف بسبب نسيان "تاريخ

وهوية مصر لكي تقع في أحضان ثقافة الصحراء"، التي لا تؤمن بـــالآخر ولا تقبـــل التعدد، رغم أن الآخر وتعدد الآراء كان من ملامح الحياة المصرية.

لذلك تجيء هذه الدراسة لتؤكد على ضرورة مراجعة المواقف مـــن خـــلال إعادة فتح ملفات التاريخ الكنسي، وعدم إهمال ما تكون على مـــر الأزمـــان مـــن شروحات ونمو؛ لأن الابن الكلمة دخل التاريخ الإنساني متجسداً، وبالتالي ليس مـــن حق أحد أن يشطب الكنيسة من واقع الحياة الإنسانية

تعبيراً عن تحملنا مسئولية تنقية المسيحية المصرية مما ران عليها من تشوهات، وإبرازاً للوجه الحقيقي للأرثوذكسية في صورته الصافية التي تعـــبر عنـــه الصـــلوات الليتورجية والتسليم الرسولي على أفضل ما يكون، نضع هذه الدراسة في يـــد الـــرب يسوع لتأتي بالثمار المرجوة ثلاثين وستين ومائة.

دكتور

جورج حبيب بباوي

صوم الميلاد المجيد ٢٠٠٩

الولايات المتحدة الأمريكية

الفصل الأول

جوهر المشكلة في لاهوت العصر الوسيط

يبدو أن جوهر المشكلة، لا يكمن في فكر د. حنين عبد المسيح فقط، بل في لاهوت العصر الوسيط برمته، ذاك الذي أفرز د. حنين وغيره، ذلك أن لُب المشـــكلة يظهر في الخلط بين الرمز والعلامة من ناحية، وفقدان العلاقة بين الحقيقة والعلامة من ناحية أخرى[١].

(١) يهتم علماء اللغة والأنثربولوجيا بالرموز والعلامات اهتماماً بالغاً، ويميزون فيما بينهم على الوجه التالي: "تتلخص ماهية الرمز في إدراك أن شيئاً ما يقف بديلاً عن شيء آخر، أو يحل محله أو يمثله بحيث تكون العلاقة بين الاثنين هي علاقة الملموس أو المشخص العياني بالمجرد، أو علاقة الخاص بالعام، وذلك على اعتبار أن الرمز هو شيء له وجود حقيقي مشخص، ولكنه يرمز إلى فكرة أو معنى مجرد. فالميزان مثلاً يرمز إلى العدالة، والحمامة ترمز إلى السلام .. إلخ ويلاحظ أن الكثير من الكتابات تخلط بين مصطلح **الرمز** ومصطلح **العلامة**، وتستخدمهما كمترادفين مما ينجم عنه كثير من الارتباك، ولكن غالبية العلماء الذين تعرضوا لهذه النقطة يرون إن الرمز يتميز على العلامة بأنه يشير إلى مفهومات وتصورات وأفكار مجردة، بينما تشير العلامات إلى موضوعات وأشياء ملموسة، أو على الأقل إلى أمور أدنى في درجة التجريد، على اعتبار أنها لا تفعل أكثر من مجرد الإشارة إلى تلك الأشياء التي ترتبط بها فحسب. فالعلامة يمكن فهمها بجلاء إذا هي أفلحت في أن تجعل المرء يستوعب عن طريق الحواس الشيء أو الموقف الذي تشير إليه، وذلك بعكس الرمز الذي يتم فهمه حين ندرك الفكرة التي يرمز إليها. فالشيء المشار إليه بعلامة أبسط بكثير من الفكرة أو المعنى أو التصور المشار إليه برمز. فالمدلول عليه بعلامة أبسط بكثير من المدلول عليه برمز. فالعلم ذو اللون الأحمر (دال) حين يوضع في الطريق على وجود عائق (مدلول حسي)، بينما هذا العلم نفسه يحمل مدلولاً يكون أكثر تعقيداً حين ترفعه دولة من الدول، عندئذٍ يصبح دالاً على أيديولوجيات معينة، ويحمل مشاعر وعواطف وتصورات فكرية لا يحملها العلم الآخر الذي يوضع في الطريق، فهو في الحالة الأولى علامة على الخطر، بينما هو في الحالة الثانية رمز لكل تلك الأفكار والمعاني والنظم المعقدة. والمحك الرئيسي في التمييز بين العلامة والرمز هو عملية الإدراك، فالعلامة يمكن إدراكها حسياً بسهولة، بعكس الرمز الذي يحتاج إلى عملية فكرية أكثر تعقيداً من الإدراك الحسي... وقد اتفق علماء اللغة المحدثون على التمييز بين الرمز والعلامة أو الإشارة على اعتبار أن الرمز يتميز بصلاحيته للاستعمال في أغراض مختلفة، وتلعب العوامل النفسية بلا شك دوراً هاماً في تحديد دلالته ... أما الإشارة فليس فيها سوى دلالة واحدة لا تقبل التنوع، ولا يمكن أن تختلف من شخص

لآخر ما دام المجتمع قد تواضع على دلالتها". بتصرف عن مقال د. أحمد أبو زيد: الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، أكتوبر/ديسمبر ١٩٨٥.

هذا هو التمييز الذي يقيمه علماء اللغة والأنثربولوجيا بين الرمز والعلامة، إلاَّ أن هذا التمييز يختلف عن التمييز بين الرمز والعلامة في الدراسات اللاهوتية، وذلك لما تتمتع به هذه الدراسات من خصوصية تجعل المجال بينهما مختلفاً. تتبدى هذه الخصوصية فيما يلي:

بدايةً، يجب الانتباه إلى تلك الفجوة التي تفصل بين المسيحية الأرثوذكسية، والأفلاطونية، والأفلاطونية المحدثة، فقد وقع عدد من علماء الليتورجيات، بل وبعض الآباء في فخ التشابه، وضاع منهم الاختلاف الجوهري بين المسيحية من جهة وبين الفلسفة من جهة أخرى. وإذا كان العالم المنظور بالفعل هو صورة رمزية للعالم السماوي الروحي، عندئذٍ يمكننا أن نلاحظ الالتقاء الفكري في استيعاب الرموز والعلامات التي تدل على ما هو سماوي أو روحي، على أن ذلك ليس كفيلاً بردم الهوة الفاصلة ما بين المسيحية الأرثوذكسية والفلسفة، ويمكننا أن نحدد عناصر هذه الهوة أو الفجوة فيما يلي:

١- الله يملأ الكون، ولذلك الحضور الإلهي علامات ورموز تبدو في دقة نظام الكون وتتابع الفصول ومنحة الحياة للكائنات.

٢- جاء تجسد ابن الله بعلاقة أخرى بين المادي والروحي، السمائي والأرضي، المنظور وغير المنظور، بل الرجل والمرأة، والكلمة والروح. هذه العلاقة سببها الاتحاد الأقنومي لأقنوم ابن الله الكلمة بالإنسانية (الناسوت)، فقد دخل الترابي والأرضي والمنظور والزماني في علاقة شركة مع الإلهي والسماوي والروحي غير المنظور، وتحول ابن الإنسان يسوع المسيح بالقيامة إلى حياة إنسانية مجيدة بمجد اللاهوت (فليبي ٣: ١)، وهو ما يشدد عليه رسول المسيح في ١ كور ١٥ ابتداءً من عدد ٤٢ عن تحول الإنسان من آدم الأول الترابي إلى آدم الجديد الرب من السماء الذي هو وحده مصدر هذا التحول.

٣- هنا حدث تحول في دلالة العلامة والرمز عجز لاهوت العصر الوسيط الأوربي والقبطي السائد عن استيعابه؛ لأنه عجز عن أن يربط هذا التحول بالتجسد والصلب والقيامة، كما عجز عن استيعاب إعلانات الله في رموز وعلامات الملكوت التي لا تُفهم بدون عمل استنارة الروح القدس الذي ينقل الشعب والخبز والخمر ومياه المعمودية وزيوت المسحة إلى مجال عمل الثالوث؛ لأنه هنا (أي في هذه المواد) يتجلى الكون بنعمة حلول الروح القدس الذي يمنح هذه الاستنارة، ولذلك تصبح العلامة **علامة حضور**، وهو حضور يهب نعمة الاستنارة، أي أن العلامة ليست مجرد علامة تشحن الذهن، بل علامة تفتح الإدراك إلى تذوق قوة القيامة وحياة الدهر الآتي، مثل علامة الصليب، فرشم علامة الصليب = ختم = قوة تطرد الشياطين، وتمنح سكنى وحلول الروح القدس.

كما تصبح **العلامة** إشارة إلى ما سبق أن تم وما يُعطى، مثل رشم الخبز والخمر بعلامة الصليب مصحوبة بعبارات التقديس: شكر وبارك وقدس وقسَّم. وتأتي علامة وضع الختم الخاص بالسيد (الأسباديقون) في الكأس كعلامة القيامة من الأموات؛ لأن الدم هو قوة الحياة، كما أن وضع الجسد في الكأس يؤكد أيضاً أن (السيد) هو الذي يوزع جسده ودمه على المتناولين.

٤- العلامة والرمز كلاهما ينبعان ويأتيان إلينا من تدبير الخلاص الذي لا يحتوي على أحداثٍ مرت وعبرت. لقد تجسد الرب، ولكنه لازال متجسداً وساكناً بيننا أو فينا (يو ١: ١٤). وسكنى الرب فينا هي سكنى المجد والقوة، وشركة في آلام موته وشهادة على حضوره، ولذلك كان الانكسار الحقيقي في زماننا هو أن نسمع أننا نعمل هذا وذاك لكي نتذكر، في حين أن ما نعمله هو علامات الطقس النابعة من سر الثالوث، ومن سر اتحاد الرب بالناسوت وسكنى الروح القدس فينا، واتحاد الرأس الرب يسوع بالجسد.

بدايةً، ليس لدينا في الأرثوذكسية "رموزاً" خاصة بالماضي، بل لـــدينا واقـــع واحد ربط السماء بالأرض ووحَّدهما معاً تحت رأسٍ واحد، هو يسوع المســـيح (أف ١: ١٠). ما لدينا في الكنيسة ليس رموزاً، بل علامات تدل على وجود سمائي إلهـــي دخل دنيا البشر بتجسد الكلمة ابن الله (يوحنا ١: ١٤). لدينا حلولٌ وحضورٌ دائـــمٌ للثالوث القدوس "الآب بالابن في الروح القدس"[١]. لدينا حضورٌ وحلولٌ لا ينقطع، تشير إليه علامات متعددة هي: الهيكل – المذبح – الصليب – الأيقونات – البخور – الشموع – الماء ... الخ.

وما أبعد الفرق بين ما هو لدينا، حاضرٌ معنا، وبين ما هو غائب أو بعيـــد أو "متعالٍ" يجعلنا نحتاج إلى رمزٍ يعيد إلى الذاكرة الحدث البعيد الغائب عن الواقع، والذي يُستدعى بواسطة الرموز لكي يُحيي في الذاكرة الإنسانية ما قد حدث وانتهى..!!!

هذه هي خلاصة شرح الطقوس حسب منظومة العصر الوسيط، التي تسللت إلى مؤلفات عزيزة علينا، درسناها، بكل أسف على أنها الأرثوذكسية، ولكن اكتشفنا، فضلاً عن خلوها من روح الآباء، أنها تمهد طريق العودة إلى اليهوديـــة، لا بـــل وإلى الإسلام نفسه. لأن اليهودية تُحيي ذكرى حضور الله بالصلاة والأعياد. ولأن اليهودية بلا إله متجسد في حياة إنسانية هو يسوع المسيح، لذلك فأعياد وطقوس العهد القديم،

هذه كلها بعيدة تماماً عن تراث اليونانية القديمة الهللينية، ولذلك فهي (أي علامات ورموز الحياة الجديدة)، ليست مثل تلك في الأفلاطونية، بل هي حاملة قوة اللاهوت.

٥- وعندما نرسم أيقونة – مهما كان رسم القديس أو الشهيد – فإن الفنان المسيحي يرسم ما يراه في القلب، ويصبح الرسم صورةً أو أيقونةً تدل على مجد القيامة الذي وهبه الرب بقيامته؛ لأنه لا يوجد في المسيح "موتى"، ولذلك تصبح الأيقونة في الصلاة وحدها علامة حضور وشركة في حياة الدهر الآتي، وهكذا أيضاً تكون الصلبان مهما كان نوع وحجم هذه الصلبان، علامة حضور على ما حدث لنا في المعمودية، وما يحدث لنا في الحياة اليومية من أتعاب وسهر ومعاناة وشهادة للرب يسوع.

بناء على كل ما سبق تكون العلامات هي علامات حضور الملك يسوع المسيح، وهي إشارات تشير إلى عمل الروح القدس وتفتح الإدراك لنوال الاستنارة لتذوق حياة الدهر الآتي، حياة النور والفرح السماوي.

(١) القديس أثناسيوس: الرسائل إلى سرابيون. – الرسالة الأولى – فقرات ١٨ – ٢٦.

بل وتقوى العهد القديم لا مجال لها في كنيسة العهد الجديد؛ لأن كل ما جاء في العهد القديم هو ظلال للمسيح يسوع، ولذلك نطق رسول المسيح بالحق عندما قال: "لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي ظل الأمور العتيدة" (كولوسي ٢: ١٦). فالوصية السابقة ضعيفة وبلا نفع (عب ٧: ١٨)، بل قد تغيرت الشريعة فعلاً (عب ٧: ١٢). والعهد القديم أصبح قديماً فعلاً، قال عنه الرسول: "عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال" (عب ٨: ١٣)، والهيكل بكل ما فيه من رموز وطقوس وُضِعَ إلى "وقت الإصلاح" (عب ٩: ١٠)، وجاء موت الرب على الصليب وقيامته لكي ينزع القديم ويثبِّت العهد الجديد بدمه (راجع عب ١٠: ٩ – عب ١٣: ٢٠)؛ لأن الرب قام بدم العهد الأبدي (عب ١٣: ٢٠).

أما المسيح يسوع فهو واهب الروح القدس "الرب المحيي"، واهب الحياة الجديدة التي لا يمكن أن تخضع للموت أو الفناء "عالمين أن المسيح بعد ما أقيم من الأموات لا يموت أيضاً (مرة ثانية). لا يسود عليه الموت بعد" (رو ٦: ٩).

لكن عندما دخلت هذه الحياة الجديدة نفق لاهوت العصر الوسيط الذي يبحث في تطهيرات الجسد، وما قبل التناول وما بعد التناول من غسل الأسنان والاستحمام ..إلخ، وعندما لم تعد القيامة هي أساس الوجود في جسد المسيح الكنيسة، ولم يعد الروح القدس هو الذي يجمع ويضم المؤمنين إلى المسيح وجسده الكنيسة (١كو ١٢: ١١ – ١٣)، تحول المسيح رب المجد إلى طعام بائد خاضع للفساد، وتحول الكهنوت إلى سلطة، وتحولت علامات حضور الرب إلى رموز؛ لأن الرب غائب، والحدث غائب، ويجب استدعاؤه عن طريق هذه الرموز، وبالتالي كان الاهتمام بالوثنية في حد ذاته دليلاً على غياب واقع الكنيسة الحي من الوعي.

وحدة السماء والأرض تحت رأسٍ واحدٍ هو أقنوم الكلمة المتجسد:

فنحن نقول عن الكنيسة إنها "بيت الملائكة"، و"بيت الروح القدس"، ومكان مبيت "الحمامة"[١] كما قال ترتليان. ولذلك فالحرص على الاتجاه نحو الشرق لا يجد تفسيره في ما ورد في تقوى العصر الوسيط من صعود الرب نحو الشرق .. الخ؛ لأن الاتجاه نحو الشرق جاء أصلاً من طقس الانضمام إلى الكنيسة في سر المعمودية، فالاتجاه نحو الغرب يعني غروب الحياة القديمة وجحد الشيطان، ومن ثمَّ يجيء الاتجاه نحو الشرق ميلاد النور الأزلي الذي يُعطى في المعمودية، وبالتالي يظل الاتجاه نحو الشرق حاملاً معه علامة الانضمام وهبة التبني، وقوة المعمودية، وهو ما يؤكده الاعتراف بالإيمان عندما يتحول الموعوظ نحو الشرق بعد جحد الشيطان.

لا يوجد هنا رمز، بل علامة ترتبط أصلاً بعلامة أكبر وهي علامة الصليب، **العلامة هنا هي التحوُّل الذي يتم في الإنسان نفسه**، هذا التحول يتم حسب كلمات طقس سر المعمودية: "ألتصق بك أيها المسيح إلهنا"، وهي ذات العبارة التي وردت عند كيرلس الأورشليمي وغيره من الآباء. ومع الالتصاق بالمسيح، أي الإتحاد به تبرز علامة الصليب التي تُوضَع "ختماً" على الجبهة لقبول الموعوظ، ثم تصبح بعد ذلك نابعة من قوة الالتصاق والاتحاد بالمسيح في المعمودية.

إن ما غاب من الوعي المعاصر – وبسبب تقوى العصر الوسيط – هو إدراك أن التجسد هو اتحاد اللاهوت بالناسوت بدون وساطة "الزمان"، وبدون وساطة شريعة موسى، وبدون أي وساطة أخرى، وبالتالي لا توجد رموز تدل على ما حدث، بل علامات تعلن السر. هذه العلامات تعلن أن:

---

(١) الحمامة هي علامة على حلول الروح القدس، وبالتالي استمرار سكناه في الكنيسة.

١– ما هو حادث الآن، هو ما حدث أمس، ويحدث اليوم وغداً وإلى الأبد (عب ١٣: ٨).

٢– ما يُعطى، هو الشركة في حياة الرب نفسه بالروح القدس.

تلك هي أسس الممارسات الكنسية كلها من عقائد وطقوس (ترتيب) تعلن للإنسان ما يناله وتؤكد بقاء ما أخذه. وهنا بالذات تصبح العلامات ضرورة تؤكد لحواس الإنسان كلها الشركة في عطية الله بالنفس والجسد معاً.

فالصليب هو ختم المعمودية والميرون، وهو علامة تمارس بتحريك اليد اليمنى، تدخلنا إلى أعماق الشركة في محبة المسيح الفائقة. أليس تحريك اليد من الشمال إلى اليمين، هو علامة انتقالنا من الدينونة والموت إلى الحياة الأبدية؟ أليس تحريك اليد من اليمين إلى الشمال حسب طقس (ترتيب) الروم هو علامة سكنى الروح القدس في القلب؟ أليس هذه هو الجانب السري في الحياة الدائمة التي لا انقطاع فيها حتى بالموت البيولوجي؟ ولكن إن تحوَّل الصليب إلى علامة خارجية لا تنبع من قلب الإنسان، ولا من قوة وعمل الروح القدس، فإن الترتيب يفقد العلاقة بالسر، وهذا يغري السذج بالهجوم عليه؛ لأنهم لم يعرفوا سر المسيح.

الصلبان من المعادن والأخشاب وغيرها، ليست في جوهرها قطعاً فنية وأشياء تُقتنى لمجرد القنية. ولكن كانت الصلبان قديماً توضع علي أجساد الشهداء قبل استعمالها؛ لأن الشهيد هو تجسد حقيقي في اللحم والدم لصليب يسوع نفسه. وكانت قديما توضع حول العنق بعد المعمودية وليس قبلها؛ لكي يحمل كل مسيحي ختم الانضمام إلي الكنيسة. بل كانت علامة الصليب قديماً – حسب رؤية معلمي الكنيسة – هي الاحتفال اليومي لكل مسيحي بالمصالحة مع الله ومع الكون ومع غيره من البشر. حتى في العصر الوسيط كتب أسقف بابليون الأنبا يوحنا يقول: "كيف ترشم نفسك بعلامة الصليب وتبغض أخيك أو تكرهه؟".

ولكن يبدو أن هذه الرؤيا أصبحت غريبة عن الثقافة السائدة في أيامنا.

وحتى لا يتوه البعض في خضم الجدل، نضع تحت أعيننا قوام هذه الرؤيا:

- إن الكون كله الذي يتمخض الآن في مخاض الميلاد نحو الحياة الأبدية وفداء الجسد بالقيامة (رو ٨: ٢٢)، هو الكون الذي "يشرب من نهر النعمة الإلهية من الآب بالابن في الروح القدس".

- كما أن المياه تدخل شريكاً من الكون في ميلادنا.

- وكذلك الزيت كمسحة من شجرة الزيتون مع أطياب لها رائحة لا تفسد، مؤكدة لنا أن الجسد مُسح مع النفس بمسحة عدم الفساد في يسوع الذي قام من الأموات بعدم فساد (أع ٢: ٢٧).

- أمَّا فيما يتعلق بالبخور، فقد غاب عن الوعي المعاصر أن القداسات وكل "ترتيب"، أي طقوس الكنيسة، هو وليمة العريس السمائي التي تجمع كل المفديِّين الذين رحلوا والذين لا زالوا علي قيد الحياة. حيث يجلس الرب علي رأس المائدة وعن يمينه الملكة وعن يساره المدعوين الرسل والشهداء والملائكة والشعب. فهذا هو طقس أو ترتيب جسد المسيح الكنيسة. ويُقدَّم البخور لكل هؤلاء وللشعب الحاضر الشريك أو الشركاء في وليمة المسيح له المجد. الكل يُقدَّم له البخور؛ لان الكون المادي المنظور لم يُستبعد من الفداء؛ ولأن ما هو **مادي** قد تأصَّل في ناسوت الرب نفسه، وقد تجلى بالنور الأزلي غير المخلوق، ولأن هذا ليس قاصراً علي الرب وحده، بل يجمع كل "أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١١: ٥٢).

فهل يُقدم البخور للصلبان والأيقونات؟

إن الدفاع من العهد القديم هو دفاع باطل مهما بدا مغرياً للقارئ. وإنما الدفاع الأرثوذكسي الحقيقي هو أن "الكلمة صار جسداً وسكن بيننا"؛ لكي يقدِّس الكل: الإنسان والكون بكل ما فيه، وأن نقدم الكون بكل ما فيه لله؛ لأننا أصلاً خُلقنا

آلهةً تُقدِّم الكون لله حسب كلمات المزمور الثامن[١]. ولكن عندما غابت الهوسات والتسبحة السنوية من الوعي المعاصر، لم ندرك أن المسيح يتجلى في الكون، فهو الذي ينفخ حتى في "الأشجار حتى تزهر"، وبذلك تشترك كل الخليقة في ليتورجية كونية. ولذلك صارت الصلبان والإيقونات والبخور والقداسات، وحدة واحدة إلهية — إنسانية، رأسها المسيح. وصارت المادة تلمع بالإستعلان الإلهي، ليس من تلقاء ذاتها، ولا لأننا نراها بعين الخيال البشري، وإنما لأن الحقيقة الكامنة فينا، الحقيقة الأبدية التي أخذناها في السرائر، لا تختلف عن ما هو كائن في الكون الصغير، أي كون الكنيسة الذي هو "خميرة الملكوت"، والتي عليها أن تخمر العجين كله.

وبالتالي، الصلبان مهما كان نوعها، والبخور، والمذبح، ليست أشياءً منفصلة عن الحقيقة التي أخذناها والتي نعيشها.

عندما هجرنا اللغة القبطية، غاب عنا أن الميرون يُسمى اسماً آخر هو ذات الاسم الذي يطلق على البخور "ⲡⲓⲥⲑⲟⲓⲛⲟⲩϥⲓ"، بل هو ذات اسم ذبيحة الصليب، وهذه دلالة لا يخطئها الذهن المدرب على الحياة الكنسية.

يقول طقسنا القبطي عن الرب يسوع المسيح:

"أيها المسيح إلهنا العظيم المخوف الحقيقي،
الابن الوحيد وكلمة الله الآب،
طيب مسكوب هو اسمك القدوس.
وفي كل مكان يقدم البخور لأسمك القدوس.
وصعيدة (ذبيحة) طاهرة" (سر بخور عشية).

---

(١) "أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ! مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ. إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا. فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ! وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً. وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ"

البخور هنا هو تقدمة تقدَّم للثالوث، والسبب ليس كما ورد في تقوى العصر الوسيط، بل لأن ترتيب الصلاة ربط بين البخور والذبيحة المسائية كما هو واضح من الكلمات التالية:

"نسألك يا سيدنا

اقبل إليك طلباتنا

ولتستقم أمامك صلاتنا

مثل البخور

رفع أيدينا ذبيحة مسائية (مزمور ١٤٠: ٢)" (سر بخور عشية).

كل هذا يكتسب معناه الحقيقي حسب الكلمات التالية:

"لأنك أنت هو ذبيحة المساء الحقيقية

الذي أصعدت ذاتك من أجل خطايانا

على الصليب المكرم

بإرادة أبيك الصالح" (سر بخور عشية).

وذبيحة المساء، حسب ترتيب العهد القديم كانت تسمى "المنحة"، أي الهبة أو العطية. إذن، فالصليب هو سبب تقديم البخور للرب، ليس للذكرى، بل "صعيدة" و"شركة" تقدمها **العلامة**، أي **البخور**، فالاسم القبطي **Πιcθοινοϥι** هو ذات اسم مسحة الميرون، وهو ذات اسم الصلاة حسب الكلمات السابقة، وهو أحد أسماء رشم الصليب، بل أن رشم الصليب يوضع بالميرون نفسه بعد المعمودية.

لقد جاء الفصل بين الحدث والعلامة مع كتب الإرساليات، ودخل تعليم العصر الوسيط الأوروبي إلى اللاهوت القبطي من عدة مصادر، هي: كتاب علم اللاهوت، الذي أعادت نشره "دار الثقافة" أخيراً – تفاسير وليم ماكنتوش – محاضرات الأب أوجين دي بليسي، وهي مادة علم اللاهوت النظري التي كان يلقيها علينا الرجل الوقور القمص إبراهيم عطية في الكلية الإكليريكية بالقاهرة.

وهكذا تعلم الأقباط ثقافة العصر الوسيط من خلال المفردات الآتية:

- عقيدة الكفارة والفداء.
- مصالحة العدل والرحمة.
- الكفارة لترضية العدل الإلهي لدرجة احتراق الابن وتحوله إلى رماد.
- ذبيحة غير محدودة لأن الخطية غير محدودة ... الخ.

ولا داعي لذكر أسماء الذين دافعوا بمرارة وأحياناً بقسوة عن تعليم أوروبي لفظته الكنائس الأوروبية لكي يستقر في مجلة الكرازة وكتاب بدع حديثة.

ولم يدر بخلد هؤلاء أن هذا التعليم وضع الصليب في ذاكرة الإنسان، وجعل العلامة علامة عقاب وتشفي، وأدخل التعليم بغضب الله الآب، وفصل الآب والابن عن الروح القدس ... الخ.

وأخيراً لم يدر هؤلاء أن الإفخارستيا صارت بدورها ذكرى لما حدث، ذكرى تحدث في عقل المؤمنين وليست سراً كائناً يُعطى من الرب يسوع نفسه.

ورغم أن المجال يضيق عن شرح ما جاء به العصر الوسيط، لكن علينا أن نلاحظ الفرق الكبير بين ما يعلم به هذا اللاهوت، وبين تعليم الأرثوذكسية:

المسيح الرب قدَّم جسده على المستوى الأزلي قبل تجسده؛ لأن دم المسيح معروف قبل تأسيس العالم (١بطرس ١: ١٩-٢٠)، تقديمٌ تم حسب الإرادة (عب ١٠: ١٠). هذه الإرادة مستعلنة في الزمان وعلى الجلجثة.

وهذا هو الجانب الأزلي السابق على خلق العالم:

"اختارنا فيه قبل تأسيس العالم.

سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح

حسب مسرة إرادته" (أفسس ١: ٣ - ٤).

ما تم قبل تأسيس العالم أُعلن في الزمان:

"لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب
الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا
حسب غنى نعمته" (أفسس ١: ٦).

لكن ما أعلن في الزمان يُعد بلا أساس إذا قيل إنه تم فقط في الزمان وعلى الجلجثة في تاريخ قديم؛ لأن ما يقصده الرسول هو عكس ما هو سائد الآن:

"إذ عرفنا بسر إرادته حسب مسرته التي قصدها في نفسه
لتدبير ملء الأزمنة؛
ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض
في ذاك الذي نلنا فيه نصيباً
معينين سابقاً حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي إرادته"
(أفسس ١: ٩ – ١١).

هكذا يبدو التعليم "العصر أوسطي" عارياً بلا أساس أزلي في الله نفسه.

فإذا عدنا إلى الترتيب الكنسي نفسه وجدنا أن:

- ذبيحة الرب، هي الرب نفسه.
- هي فعل وحركة المحبة الإلهية.
- هي شخصٌ حاضرٌ حالٌ معنا (عمانوئيل حالٌ في وسطنا).
- وهو حالٌ بالروح القدس.
- قدَّم نفسه بالروح الأزلي (عب ٩: ٩ — ١٣).
- أقام عهد أبدياً إذ قام من الأموات "بدم العهد الأبدي" (عب ١٣: ٢١).
- هو الذي يقدِّم جسده ودمه، وليس الأسقف أو القس، ويقدِّمه لنا بالروح القدس حسب التسليم الكتابي والآبائي الذي سُلِّم لنا في القداسات.

فهل يمكن بعد ذلك – مع دوام التقديم وبسبب دوام العلاقة بين الرأس أي المسيح والجسد الكنيسة — أن يدخل الزمان وتدخل المسافة لفصل الرأس عن الجسد؟!

إذن، هل يقدَّم البخور للصليب؟

نعم؛ لأن البخور والصليب علامة واحدة تعلن سر المحبة الأزلية. كما أن الأيقونات لها ذات الترتيب الإلهي نفسه.

هل يوجد دليل أفظع على غياب "تقديس المادة بسبب تجسد الابن" من تعليم حركة الإصلاح، أو من التعليم القبطي السائد، من معاملة الجسد على أنه قذر ونجس يحتاج إلى التطهير بالماء، رغم أنه تقدَّس في مياه المعمودية، ومُسِحَ بالميرون، ويغتذي بجسد الرب ودمه؟

هل يوجد ما هو أفظع من أن ننال الدخول في هذه النعمة، ثم ننكر قوتها ونتحول بعد ذلك إلى ما جاء في تقوى العصر الوسيط من ممارسات قائمة على المنع والتحريم.

ومثل الصليب والبخور والميرون، هكذا أيضاً الأيقونات، فهي علامات على وحدة الكنيسة عبر العصور؛ لأن الآباء والشهداء والقديسين ليسوا فقط مجرد أسماء في ذاكرة الكنيسة – هذه عبادة يهودية عشنا تحت ظلالها وظلامها لأنها يهودية بلا مسيح – لكن هؤلاء الذين نراهم في الأيقونات هم شركاء في قداسة الروح القدس (عب ٦: ٤ مع عب ١٢: ١٠)، هم شهود حاضرون حسب مستوى واستعلان الكنيسة الواحدة في كل الدهور. هم ضيوف الوليمة السماوية التي تُستعلن في القداسات حيث الرب هو الملك وعن يمينه الملكة والدة الإله، ثم ضيف الشرف يوحنا المعمدان وباقي الضيوف. هؤلاء يقدَّم لهم وللشعب أيضاً الطيب المسكوب، أي اسم الرب والبخور؛ لأننا في وليمة واحدة.

السر لا يفصل بين العلامة والشخص. لكن الفصل بينهما دخل مع تقوى العصر الوسيط التي فصلت العلامة المنظورة عن النعمة غير المنظورة، وبقدرة عقلية لا علاقة لها بالإنجيل وصفت السرائر بأنها "وسائط النعمة"، بينما هي شخص المسيح

المُستعلن في الصلوات، والمُعلَن بالروح القدس، والذي تدل عليه كل علامات السرائر. لا يوجد فصل بين علامة الصليب والمصلوب، أيهما يُعلن الآخر لأنهما معـــاً وحـــدة واحدة.

الفصل الثاني

قصور تقوى العصر الوسيط
عن استيعاب الرؤية الأرثوذكسية لله والإنسان

ماذا فعل بنا العصر الوسيط؟

تقع مسئولية استمرار لاهوت العصر الوسيط في الوجود في المسيحية المصرية حتى الآن على الإكليروس الذي يدافع عن تعليم عقلي لا علاقة له بالعلاقة الشخصية بين المؤمنين والمخلص نفسه. وعند شرح الطقوس نجدهم يعودون إلى العهد القديم؛ لأنهم لم يدرسوا الآباء ولا حتى الليتورجيا نفسها. ولهذا دخلت ممارسات شعبية لا علاقة لها بالإيمان لم تكن معروفة حتى عصر قداسة البابا كيرلس السادس مثل السجود للبطريرك والأساقفة وغيرها من مظاهر لم تكن معروفة في التاريخ الكنسي، فالسجود هو اعتذار، ولذلك حرصت اللغة القبطية – العربية على استخدام كلمة مطانية، أي "توبة" عن عمل أو تصرف خاطئ ضد أي إنسان، وهو سلوك ينتمي إلى آداب الرهبنة، وهي بدورها – أي الرهبنة – إذا عُزلت عن الرؤيا الأرثوذكسية لله والإنسان، تبدو ضد الطبيعة، ولكنها – في حقيقتها – اختيارٌ حرٌ لحياة القيامة، أي الدهر الآتي، بينما لا زال الذين اختاروا هذا الطريق أحياء في ذلك الجسد الترابي.

طبعاً هذا هو الأصل. أمَّا الذين يفشلون في سلوك هذا الطريق، فهم مثل غيرهم من أبناء وبنات الكنيسة الذين يفشلون في اختبار التوبة وحياة التجديد،

والعيب ليس في منظومة الإيمان، أو الطقوس، أو الممارسات الكنسية، بل في فشل البشر في الخضوع للنعمة.

مَن يخرج علينا ليقول إن الرهبنة هرطقة، هو إنسان فشل في إدراك أن البتولية هي ارتفاع وسمو التوبة، وعطش إلى الله يختاره الإنسان حراً، ويتركه إذا تعذَّر عليه دون أن يقع عليه لوم؛ لأن ترك البتولية ليس ذنباً أو جريمة، فهذا هو فهم مدارس القانون التي لا تعتمد على التعليم العقيدي اللاهوتي، ولذلك لا تمنع الأرثوذكسية أي راهب ترك الرهبنة من الزواج ولا تعتبر أنه انحرف أو أخطأ.

الحقيقة هي أن المسيح حالٌّ فينا ومعنا بلا رموز:

لعل أكبر أخطاء العصر الوسيط هو عدم إدراك أن الرموز والعلامات والاستعارات والتشبيهات هي دلالات تؤكد وجود حقيقة ماثلة يشير إليها الرمز؛ لأن كلمة رمز هي الكلمة اليونانية σύμβολον وهي كلمة مركبة من σύμ والفعل اليوناني βολον ولغوياً الرمز هو وضع شيئين معاً لكي تكمل الرؤيا وتظهر الحقيقة. وهنا نحيل القارئ إلى البحث الجيد الذي نشره الأب الكسندر شميمان ضمن كتابه "من أجل حياة العالم" عن السر الكنسي والرمز[١].

ودون أن نرهق القارئ في متابعة التطور اللغوي والتاريخي الذي مر به لاهوت الأسرار الكنسية في الغرب بشكل خاص، والذي نقل عنه الذين درسوا المؤلفات اللاتينية في اليونان ابتداء من George Scholarios (١٤٠٥م – ١٤٧٢م)، والذي رسم بطريركاً وعرف باسم جناديوس Gennadios وعشق توما الإكويني لأنه كان يجيد اللاتينية، نحيل القارئ إلى أول دراسة أرثوذكسية حديثة بعنوان "الأرثوذكسية

---

(١) راجع الأب ألكسندر شميمان، من أجل حياة العالم، تعريب الأرشمندريت توما بيطار – منشورات النور – بيروت – لبنان، ١٩٩٤، ص ١٩٠ وما بعدها. راجع أيضاً الأصل الإنجليزي ص ١٣٥ وما بعدها.

والغرب" Christos Yannaras, Orthodoxy and the West نشرها Holy Cross عام ٢٠٠٦.

ومجمل القول هو أن التعليم اللاهوتي النظامي systematic خُلق للدفاع عن العقيدة المسيحية على أساس فلسفي، فالغرض نبيل والهدف مقدس، ولكن لم يكن هذا التعليم الفلسفي، مهتماً بالجانب المستيكي أو السري، وإن كان ذلك ليس عن قصد أو سوء نية. وعندما أدرك علماء اللاهوت من الكنيسة الكاثوليكية هذا النقص، صدرت دراسات توزن بالذهب، ولعل أشمل دراسة وأكبرها حتى الآن هي دراسة الأب الكاثوليكي:

Cyrian Vagaggini, Theological Dimensions of the Liturgy, 1976

والمجال لا يسمح بذكر رواد القرن التاسع عشر من عظماء الكاثوليك، فهم الذين شقوا الطريق خلال تراكمات العصر الوسيط.

إذا عدنا إلى مصر العزيزة التي هي القلب والفكر والروح والجسد، دون أن ندخل في استعراض آلام ومضايقات ربع قرن من الزمان سيطر فيه الرعب والخوف من القطع من شركة الكنيسة، وتوقفت مراكز البحث عن البحث، يمكننا أن نرصد عدة حقائق بارزة لا يمكن تأجيل البحث فيها؛ لأننا نراها ماثلة أمام عيوننا وتشهد لها المقالات والكتب التي صدرت وتشن حرباً بلا هوادة ضد كل ما هو أرثوذكسي.

أولاً: اعتبار كبرى العقائد من أحداث الماضي البعيد

وتأتي على قمة هرم ذلك الماضي الذي صنعته عقلية العصر الوسيط عقيدة "تجسد الابن الكلمة ربنا يسوع المسيح". فهو حدث تم وانتهى، فالمسيح تجسد وبعد ذلك صعد إلى السماء وأصبح ما لدينا هو ما يجب أن يُشحن في العقل "للتذكر".

لماذا نفعل هذا وذاك؟

لكي "نتذكر". الاتجاه للشرق هو تذكر الفردوس. كما أن صعود المسيح كان شرقاً.

ولكن الفردوس هو الكنيسة، والشرق جاء من الاعتراف بالإيمان في سر المعمودية. إذن، فقد ضاع الفردوس، ولم يعد الاتجاه للشرق هو عودة للاعتراف الذي قُدِّم في سر المعمودية بعد جحد الشيطان. وبالتالي لابد أن يسأل العقلاء: "الله موجود في كل مكان، فلماذا الشرق بالذات؟" عندئذٍ يدور الجدل حول تلك الأرثوذكسية التي غابت عن فهم واستيعاب الرموز، وغاب أن الاتجاه للشرق هو عودتنا إلى الفردوس، والأكل من شجرة الحياة، والاعتراف بالمسيح، وهو تحول الإنسان كله إلى الخليقة الجديدة.

وإذا سألت عن سبب وجود شمعتين على المذبح قيل لك ولي إنهما يذكرانا بالملاكين عند قبر المسيح، واحد عند الرأس والآخر عند القدمين. والمصيبة الكبرى هي أن هذا جزءٌ من الحقيقة التي ذكرها الإنجيل المقدس (يو ٢٠: ١٢)، لكن الحقيقة كلها هي أن المذبح هو عرش الثالوث، وأننا أمام بشارة القيامة؛ لأن هذا المذبح، وحسب الترتيب "حضن الآب" في الشرق، فالمذبح ليس قبراً حوله ملاكين، بل هو المائدة السماوية التي تقف كل رتب الملائكة حوله، ومنه بشارة الحياة بالأكل من شجرة الحياة. والشمعتين علامة الحياة والنور والبشارة الملائكية بقيامة الرب ومصالحة السماء والأرض. التجسد يعني سكنى المسيح بيننا، هو آت دائماً إلينا "عمانوئيل إلهنا في وسطنا". هو حسب تعبير القديس أثناسيوس "الحضور المتجسد" والروح حال دائماً فينا من بعد المعمودية. والاستدعاء هو عودة الوعي لهذا الحضور الدائم غير المنقطع.

ما علاقة كل هذا بالتجسد؟

البداية هي "اتحادٌ بلا انفصال وبلا تغيير"، هو حلول ملء اللاهوت جسدياً (كولوسي ٢: ٩).

هذا قضى على كل طقس يُقرب الله من الإنسان، أو الإنسان من الله. وهذا بدوره جعل ما لدينا من رموز بالمعنى السابق – وهو وضع شيئين معاً لكي تكمل الرؤيا – يقصر عن التعبير عن الواقع، فالواقع أكبر من كل الرموز. فقد جاء التجسد بالمذبح، وصار المذبح هو المائدة؛ لأن اسم المائدة لم يحذف من الليتورجيات الأرثوذكسية؛ لأن التقديم أو القربان يكمل الرؤيا.

لقد جاء التجسد بشركة القديسين؛ لأن المسيح الحي لا يوجد فيه عضو ميت، وشركة القديسين هي الكنيسة.

لقد جاء التجسد بصلاة تختلف تماماً عن صلوات العهد القديم؛ لأن رأس الكنيسة ابن الله حمل في أقنومه الإلهي الناسوت، ووحَّده بجوهر اللاهوت معلناً أن الصلوات هي في الله ولله، هي في الابن وبالروح القدس لله الآب، فهي ليست لله فقط، لأن الابن هو الوسيط.

وصعود الابن له المجد بالجسد يؤكد بقاء الاتحاد بين لاهوت الله الكلمة والناسوت اتحاداً أبدياً. فكيف انعكس هذا على الممارسة الكنسية لا سيما في خدمة السرائر؟ صارت طقوسنا كلها مع الصلوات نابعة ومؤكدة لهذا الإتحاد الأقنومي. لماذا يرشم الكاهن الشعب كل مرة يقول فيها: "السلام لجميعكم"؟ تقوى العصر الوسيط تقول إنه على سبيل البركة، بينما روح صلواتنا تقول إن الرشم تأكيد على مصالحة بلا ندامة، على تدفق المحبة الإلهية لغير المستحقين، يؤكدها ختم الغفران أي رشم الصليب. لماذا يقول الشماس حسب دقة اللغة اليونانية: "قوموا للصلاة"، وليس "قفوا للصلاة"؟ لأننا "قياميون" قد أخذنا عربون القيامة بقيامة الرب من الأموات، وهو ذات نداء الشماس عند قراءة الإنجيل: "قوموا بخوف من الله واسمعوا الإنجيل المقدس"، فهو ليس الوقوف ولا هو الاحترام حسب شرح العصر الوسيط، بل هي القيامة التي يمارسها الجسد بالنفس التي أُقيمت في المسيح؛ لأن "المعمودية هي قيامة النفس".

لقد جرى تفتيت حياة الرب في الجسد إلى تجسد، وصلب، ودفن، وقيامة، وصعود، في حين أن كل هذه الأحداث هي إعلانات عن المصير الأبدي للإنسان، وقد أعلنت في ذات ناسوت الرب الواحد، فإذا ما تجاوزنا هذه الحقيقة كانت النتيجة الطبيعية لذلك هي تقسيم المسيح الواحد، وبالتالي نفقد الرؤية الشاملة لتدبير الخلاص.

جاء اتحاد اللاهوت بالناسوت بصراخ الكنيسة الجامعة: "يا رب ارحم"، ليس لأن الله قاسٍ، وإنما لأننا اتحدنا بالمسيح بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، ولذلك يُوحي إلينا هذا الاتحاد بصلاة واحدة، هي طلب الرحمة بسبب ضعف محبتنا لله وللآخر والكون، ولأن الآخر هو في المسيح، والكون استُدعي بواسطة الابن للفداء، ومن جانبنا حتى صلوات الأواشي كلها هي أكبر من طاقة وقدرة أي كنيسة على العمل بما فيها، فلا رجاء لنا إلاَّ في "رحمة الله العظمى".

التجسد هو سبب وجود المذبح في الكنيسة؛ لأن الذي ذُبِحَ هو "حمل الله"، وهو سبب بقاء اسم "المائدة" كاسمٍ آخر يؤكد لنا أن عمانوئيل هو خبز الحياة النازل من فوق من عند الآب لكي يهب الحياة للعالم (يوحنا ٦: ٣٣).

والتجسد هو سبب بناء الهيكل؛ لأن جسد ربنا يسوع دعي "هيكل الحياة" (تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس حيث وردت كلمة "هيكله" أي الناسوت عدة مرات، راجع ٨: ٣ – ٢٢: ٥ – ٢٦: ١ – ٣١: ٤).

والتجسد هو الذي جعل الرب "البكر بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩) لأنه اشترك في اللحم والدم مثل باقي البشر، وتقدم علينا كباكورة (عب ٢: ١٤، مع (كولوسي ١: ١٨).

ثانياً: اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد

يقول القديس كيرلس السكندري عن الاتحاد الأقنومي:

"المسيح حقاً هو سرٌ عجيب فائق، ففي صورة العبد نجد الربوبية، وفي الكيان الإنساني نجد مجد اللاهوت" (المسيح واحد ص ٧٢ – القاهرة ١٩٨٧).

ورفض التعليم النسطوري برمته يعني بالنسبة لنا كبشر أن النعمة لها مصـــدر واحد وهو الله؛ لأننا نشترك بالعطية لكي ننال ما هو من الله، والذي هو من طبيعة الله (راجع، المسيح واحد ص ٤٧).

"نحن ترابيون، فينا التراب من آدم الأول الترابي، أي اللعنة والانحلال،
لكننا صرنا سمائيين، وأخذنا هذا في المسيح؛ لأنه بالطبيعة الله،
وهو الكلمة من فوق، أي من الله، ونزل إلينا متجسداً،
فوُلِد بالجسد من الروح؛
لكي يجعلنا مثله ونصبح قديسين وبلا فساد،
وتنزل إلينا النعمة من فوق
ويصبح لنا بداية ثانية وأصل جديد فيه" (المسيح واحد ص ٣١).

هذا الإتحاد له شهود:

- والدة الإله.
- آباء الكنيسة.
- الشهداء.

هذا الإتحاد له علامات:

- رشم الصليب.
- الأيقونات.
- البخور.

الحقيقة الحاضرة هي حلول الثالوث فينا نحن البشر، وعلامات هذا الحلـــول هي:

- **الهيكل**، وهو أصلاً هيكل جسد الرب يسوع الذي صار الهيكل في الكنيسة علامةً عليه.

- **المذبح**، وهو علامة ثبات إرادة الرب الدائمة التي لا تتحول والباقية دائماً لكي تعطي.

الصليب في عيني من يعرف أن يرى هو نهر المحبة الفياض الذي فاض بقيامة الرب الذي "بالموت على الصليب داس الموت". ولكن الكلام كثير، والاعتراضات سهلة على كل من يفتش عن اعتراضات في العهدين، وعلى كل مَن حوَّل الصليب إلى حدث انتهى يوم الجمعة، وأصبح ما تبقى منه مجرد ذكرى تقبع في عقل الإنسان. الاعتراضات سهلة على كل من حوَّل المسيح الرب إلى فكرة في الذاكرة، فكرة قابعة في الزمان الغابر، أو إلى علاقة عقلية لا تمس الواقع، أي الوجود المادي.

ثالثاً: أكبر كذبة في التاريخ الكنسي

قد يندهش القارئ إذا قلنا إن أكبر كذبة قيلت في تاريخ المسيحية شرقاً وغرباً معاً في آن واحد هي القول بأن الكتاب المقدس هو مصدر التعليم الوحيد في الكنيسة، والدليل على ذلك:

١– اختلاف الذين وضعوا هذا المبدأ في القرن السادس عشر فيما بينهم حول الكثير ابتداءً من العشاء الرباني وانتهاءً بخدمة الكهنوت، ولهذا السبب نجد أنه قد تفرع عن هؤلاء قرابة ٣٩٠٠٠ شيعة لا تزال تدَّعي وتعلم ذات الكذبة: أن الكتاب المقدس هو مصدر التعليم الوحيد.

وإذا أردنا أن نتتبع كيف انقسمت حركة الإصلاح إلى لوثرية – مشيخية (كالفن) – مُصلحة (زوينجلي) – ..... الخ، لوجدنا أن المأساة بدأت على النحو التالي:

* أفكار مُسبقة *presupposed ideas* تُفرض على نصوص الكتاب المقدس.
* قراءة شخصية بلا أساس تاريخي، وبدون العودة إلى مدونات العصور الأولى.
* وضع الكتاب المقدس في مواجهة الأم التي أعطته الولادة وحافظت عليه، وهي الكنيسة التي سبق وجودها في التاريخ وجود كل أسفار العهد الجديد.

٢– عندما جفت ينابيع الفكر في الأوساط الإنجيلية عاد هؤلاء إلى شرح وعظات آباء الكنيسة على أسفار العهدين، وتوالي أكبر دور النشر الإنجيلية حالياً نشر شرح كامل لكل أسفار الكتاب المقدس تحت عنوان:

Ancient Christian Commentary on Scripture, General Editor, Thomas C. Oden

والسبب في هذه التوبة هو اكتشاف الجذور التاريخية للمسيحية، ومحاولة رأب الصدع الذي جاءت به حركة الإصلاح.

٣– إن العهد الجديد بالذات هو "بشارة"، و"شهادة". فهو ليس كتاب لاهوت أو كتاب يشرح الممارسات الكنسية. ولعلك – عزيزي القارئ – إذا سألت نفسك بدقة وأمانة عن مصدر الصيغة: "باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين"، لوجدت أن النص حسب إنجيل القديس متى ورد: "باسم الآب والابن والروح القدس" (متى ٢٨: ١٩)، لكن الإضافة "الإله الواحد"، هي من الممارسة الكنسية.

ولعلك عزيزي القارئ قد لاحظت أن العهد القديم لا يُقرأ في القدَّاسات، وإنما فقط مقتطفات وفصول مختارة منه تقرأ فقط في الصوم الكبير وأسبوع الآلام، والسبب في ذلك أن الصوم الكبير كان مناسبة تعليم الموعوظين وإعدادهم للمعمودية.

ولكن الجدل مع شهود يهوه تلاميذ أريوس، كشف أن العودة إلى العهد القديم، جعلت هؤلاء يشرحون العهد الجديد بمنظومة العهد القديم، وهو الاتجاه الذي أسسه يوحنا كالفن. وهو ما يفسر ترك شهود يهوه لكلمات الرب يسوع نفسه:

"لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض" (أع ١: ٨)، فلأن اسم يهوه حل محل اسم الآب، ضاع منهم الإيمان بإلوهية الابن وإلوهية الروح القدس ولم يعد هؤلاء هم شهود يسوع، بل شهود العهد القديم. وهو المصير الذي ينتظر كل من يحذو حذوهم.

رابعاً: الاستخدام الإعلامي والصحافي لكلمة "بدعة"

تعليقاً على وصف د. حنين الرهبنة بالبدعة، نقول إن التاريخ الكنسي لم يعرف ذلك الاستخدام الوافد إلينا من الثقافة المعاصرة، وهو تجريم الممارسة، باعتبار أن ممارسة الحياة اليومية – حسب تقدير د. حنين – يجب أن تخضع لنمط واحد وأسلوب واحد، هو الزواج.

البدعة = الكلمة اليونانية الأصل "هرطقة"، وهي خاصة برفض أحد قواعد الإيمان وإنكاره تماماً، مثل البدعة الأريوسية التي أنكرت إلوهية الرب يسوع[1].

أعود وأكرر إن من يسمع دعوة الرب يسوع "بع كل مالك وتعال اتبعني" لا يمكن أن يكون صاحب أسرة. هذا اختيار دعاه الرب نفسه باسم لا تقبله اليهودية وهو "خصيان"، فالزواج نصف الدين هي قاعدة من "التلمود"، ولم تقبل اليهودية عبر عصورها البتولية أو عدم الزواج. لكن الرب يسوع يدعو فئةً من التابعين له أن يكونوا "خصياناً"، وقد جاء تعليم الرب بهذا الخصوص في متى ص ١٩ الفصل الخاص بالزواج والطلاق في (١٩: ٢ – ١١)، ثم ختم الرب قوله: "يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل الملكوت من استطاع أن يقبل فليقبل" (مت ١٩: ١٢).

---

(١) بالمناسبة، صيغة "الواحد مع الآب في الجوهر أو من ذات جوهر الآب"، وهي الصيغة التي أنقذت الإيمان من الهرطقة الأريوسية، لم ترد في الكتاب المقدس.

ولعلك تدرك من كلمات النبي أشعياء: "هكذا قال الرب للخصيان الذين يحفظون سبوتي ويختارون ما يسرني ويتمسكون بعهدي. إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصباً واسماً أفضل من البنين والبنات. أعطيهم اسماً أبدياً لا ينقطع" (أش ٥٦: ٤ – ٥). والذين تبعوا الرب وفضَّلوا عدم الزواج، ثم جمع هؤلاء شملهم في حياة "ديرية"، هؤلاء بلا شك يتبعون المبدأ الأسمى، لكن كما كان في عصر الرسل وحسب شهادة العهد الجديد نفسه، يندس "الشواذ" من أصحاب المشاكل والصراعات النفسية والعقلية، ويجدون في الرهبنة مهرباً وملاذاً.

كانت مشكلة الأرامل من صغار السن أن بعضهن "بطرن على المسيح .. بطالات يطفن البيوت .. مهذارات" (١تيمو ٥: ١١ – ١٤)، واضح من كلام الرسول بولس أن الكنيسة عانت من سلوك شائن غير محدد (١ تيمو ٥: ١٤). وعندما يوصي الرسول تلميذه: "أما الشهوات الشبابية فاهرب منها واتبع البر" (٢ تيمو ٢: ٢٢)، فلأننا جميعنا معرضون للتجارب، ومن يظن أنه قائم لا يسقط، عليه أن يسمع قائمة خطايا عرفها الرسول في كنيسة غلاطية وحددها باللفظ: "زنى – عهارة – نجاسة – دعارة – عبادة الأوثان" (غلا ٥: ١٦ – ٢١)، بالإضافة إلى حادثة الزنى في كنيسة كورنثوس (١كو ٥: ١). وليس لدينا في المسيحية التاريخية خطية أعظم وخطية أصغر. كان "الحسد والخصام والانشقاق" (١كو ٣: ٣) معروفاً أيضاً في كنيسة كورنثوس، وقائمة خطايا الشذوذ الجنسي التي ذكرها الرسول بولس في رومية (١: ٢٦ – ٢٧) كانت معروفة وشائعة، بل دافع عنها أفلاطون في حواره المعروف "فيداروس".

وعرف العهد القديم ذات السلوك الشاذ، ومن يدرس العبادة الكنعانية يعرف أن الرجال والنساء أيضاً كانوا يقدمون أجسادهم وأجسادهن في المعابد للزنى. هذا ليس دفاعاً ولا قبولاً لسلوك غير طبيعي ضد كل ما نعرفه عن وظائف أعضاء جسم

الإنسان، وهو لذلك "تعدي" لأنه خروج على القانون أو الحدود الطبيعية للإنسان (١يوحنا ٣: ٤).

ولا يوجد مجتمع في التاريخ البشري كله في الشرق أو الغرب لا يعرف، ولم يعرف بين الجماعات البشرية المتناثرة في الكرة الأرضية السلوك الجنسي الشاذ الذي يحاربه المجتمع وأحياناً يتسامح فيه كما هو حادث الآن في بعض دول أوروبا. وصراع القانونيين حول شرعية زواج رجل برجل لا زال دائراً في مجالس القضاء، قبلته بعض الولايات في أمريكا، ولم ينل بعد شرعية في القانون الفيدرالي. فإذا ظهر هذا السلوك في الأديرة، أصبح السؤال الحقيقي الصادر عن رغبة في معرفة الحق، وليس ذلك السؤال الذي يأتي من العداوة والرغبة في التشهير: هل الرهبنة هي مصدر الشذوذ الجنسي؟ وهل كان أفلاطون والإسكندر الأكبر وبعض ملوك أوروبا وبعض ملوك العرب، بل وبعض شعراء العرب رهباناً؟!! أليس هذا تجنٍ مصدره الغيظ؟ وهل كان الغيظ يوماً والكراهية مؤهلاً للبحث عن حقائق خاصة بالسلوك البشري؟

وثمة جانب آخر غير مدرك يدل على ثقافة محدودة ضيقة، وهو عمومية بل كونية حياة النسك والتصوف، فهذه الحياة موجودة في الإسلام، بالرغم من الشعار الواضح: "لا رهبانية في الإسلام"، ومع ذلك ارتاد رواد الحركة الصوفية من عظماء البشر "بحر المحبة الإلهية" وأنقذ بعضهم – مثل جلال الدين الرومي – الإسلام من التحول إلى رتابة اجتماعية. وجاء من قبله الحلاج، ورابعة العدوية، وابن الفارض، وسلسلة من الطليعة والتابعين دُوِّنت أسمائهم في كتاب "طبقات الصوفية – لأبي عبد الرحمن السلمي – تحقيق نور الدين شريبة من علماء الأزهر – القاهرة ١٩٨٦".

كما دافع د. عاطف جودة نصر في مقدمة كتابه: "شعر عمر بن الفارض – دراسة في فن الشعر الصوفي ١٩٨٢" عن الأصل الإسلامي المحض لحركة التصوف، وهو على حق؛ لأن لدى كل إنسان عطشٌ روحي مطلق للخالق ولاكتشاف محبته،

عرفته الإنسانية كلها عبر عصورها، لأن الإنسان الباحث دائماً عن ذاته وعن سبب وجوده في الدنيا وعن مصيره، يجد في الله إجابات كثيرة تراها عند الهندوس والصوفيين وفلاسفة أوربا الذين تركوا الديانات بأسرها ونادوا بمبدأ *Deism* وهو يؤكد لنا عطش الإنسان الدائم الذي لن يستريح حتى يجد خالقه، بل دخل التصوف اليهودية في أوروبا الشرقية وبعث فيها روح الصلاة قبل أن تصبح الحركة بعد ذلك حركة سياسية عرفت منذ نشأتها باسم *Hasidim* أي الأتقياء.

فإذا جاء المسيح ليقول ويعلم العطاش جميعاً بأن "ملكوت الله في داخلكم" (لوقا ١٧: ٢١)، وأنه جاء هو بنفسه لكي يعطي لنا هذا الملكوت، وترك الذين عطشوا إلى محبة الله كل شيء وتبعوه، ألا نرى في ذلك ما ذكره الرب يسوع نفسه: "وكل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات، أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية. ولكن كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرين أولين" (مت ١٩: ٢٩)؟

وهذه هي كلمات الرب التي نطق بها بعد أن رفض الشاب الغني دعوة المسيح نفسه: "بع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء"، ألم تكن هذه الكلمات دعوة وجواب على سؤال "إن أردت أن تكون كاملاً" (متى ١٩: ٢١)؟

الرهبنة ليست دعوة للشواذ، وإن دخلها الشواذ، فالخطأ ليس على الدعوة ولا في المبدأ، فقد سمع الشاب الغني كلمات الرب يسوع من الرب يسوع نفسه، ولكن لم يكن لها مكان في قلبه، أما الشاب أنطونيوس بعد قرابة ٣٨٠ سنة (وربما أكثر) سمعها من قارئ في الكنيسة ومضى وباع كل ما له لكي يجد الكمال في محبة الثالوث.

تطرف العدمية Nihilism

عندما عشت في صعيد مصر كنت اسمع عبارة كانت في زمان "الصبوة" مثالاً للقدرة وهي: "أنا أحرق اللحاف علشان برغوت"، ولكن دراسة علم النفس ومبادئ التحليل النفسي جعلتني أرى فيها وفي غيرها من عبارات شريحة من الحياة النفسية المصرية تحرق الأخضر واليابس معاً، انتقاماً وتشفياً، وهو سلوك "سادي" تراه في سوء استخدام السلطة وتعدي الأعراف والقانون وإهدار حقوق الإنسان، بل تجاوز حتى الآداب الاجتماعية والسلوك الخلقي الفاضل الذي تعارف عليه المجتمع.

وهكذا حاول د. حنين أن يحرق الرهبنة والرهبان معاً بسبب تسلط العدمية الذي منعه من أن يرى التعليم النسكي عن طهارة القلب – الصلاة الدائمة – الصوم – القداسة – مواهب الروح القدس – الالتصاق بالمسيح المصلوب – سكنى الروح القدس – موهبة النبوة – معجزات الشفاء .. الخ. وغير ذلك من الكثير، كل هذا صار مثل اللحاف الذي يجب أن يُحرق لأن برغوثاً وُجد فيه، أي عبارات ووقائع عن الزنى والسلوك الشاذ، بل السرقة والكذب ... الخ وهي خطايا معروفة في كل كنيسة مسيحية وفي كل مجتمع ...

لماذا يتم إحراق كتاب "فردوس الآباء"، وهو أول عمل علمي وتاريخي يؤصل للحياة النسكية المصرية والأمثلة الغالية: انطونيوس – مكاريوس – يوحنا القصير – يوحنا الأسيوطي – إلى آخر هؤلاء من قائمة طويلة؟ هناك بشرٌ قد لا نجد في سلوكهم ما هو مقبول بل مرفوض، ولكن هذا لا يشطب على باقي حياة هؤلاء الرواد مثل موسى الأسود وبيمن الراعي وباخوميوس معلم الحكمة.

لقد كان لنا حظٌ وافرٌ للتلمذة على رهبان أفاضل مثل القمص مينا المتوحد (البابا كيرلس) القمص مكاري السرياني (الأنبا صموئيل) د. وهيب عطا الله (الأنبا غريغوريوس) القمص متى المسكين، الراهب فليمون المقاري، وهو مثال العفة والصدق

والأمانة وغيرهم، وفي الجيل السابق علينا وقبله الأنبا إبرآم أسقف الفيوم – الأنبا صرابامون وغيرهم. وهؤلاء كانوا المثال الصالح الذي لا زال له وجود بيننا، وإن كانوا لا يعلنون عن أنفسهم لأنهم تركوا كرامة الحياة الاجتماعية لمن يريدها.

الأيقونة – الرسم – العلامة – الحقيقة:

الأيقونة كلمة يونانية وردت في الترجمة السبعينية (تكوين ١: ٢٦)، وهي خلق الإنسان حسب "أيقونة" ومثال الله. ولاحظ أن كلمة أيقونة هي ذات الكلمة العربية "صورة". الإنسان هو صورة أو أيقونة الله.

وربنا يسوع هو أيقونة الله حسب الأصل اليوناني لكلمات الرسول بولس في كولوسي ١: ١٥ ος έστιν εἰκὼν του Θεου وعندما تجسد الابن أيقونة الله، أخذ صورة العبد μορφή δοῦλος (فيلبي ٢: ٧). ولا يوجد أي داع للتمييز اللغوي بين "صورة"، و"أيقونة"، فالحقيقة الثابتة لاهوتياً هي: تجسد الكلمة (يوحنا ١: ١٤) وفي الأيقونة الظاهرة المرسومة في الجسد الإنساني أعلن الابن له المجد عن إلوهيته، وأعلن أيضاً – بتجسده – الآب والروح القدس.

حسب التاريخ القديم كانت صورة المسيح قد رُسمت وأرسلت إلى أبجر ملك الرها، وكانت موجودة حتى سقوط مدينة الرها في يد الفرس في القرن السادس. وحسب التاريخ القديم كانت صورة القديسة مريم قد رُسمت بيد لوقا الإنجيلي، وعنها نقلت الأيقونات الأخرى. وكانت الأيقونة الأصلية في القسطنطينية حتى سقوطها على يد العثمانيين في القرن الخامس عشر.

الرسم ليس هو تحديد ملامح الإنسان كما هي في الواقع، لأن الواقع حسب الإيمان هو مكون من مرحلتين أو طابقين:

– الإنسان كما هو في شكله الإنساني الطبيعي البيولوجي.

– الإنسان كما هو حسب نعمة الدهر الآتي التي تعطى الآن في الزمان.

لأن الإنسان الباطن حسب عمل الروح القدس (أف ٣: ١٦) هو الإنسان الواحد الجديد الذي خلق من جديد في المسيح (أفسس ٢: ١٥). الإنسان الخارجي البيولوجي يفنى، ولكن الإنسان الجديد الباطن فيتجدد يوماً فيوماً (٢ كو ٤: ١٦).

وكتب القديس يوحنا الدمشقي دفاعاً عن الأيقونات في زمان سادت فيه محنة كبرى حاول فيها الإمبراطور لاون الأيسوري القضاء على الأيقونات بالحرق والتدمير ومطاردة كل من يقتني الأيقونات. وقد أبرزت هذه المحنة ثلاثة أخطار لا تزال حاضرة في التاريخ المعاصر:

الخطر الأول:

هو فقدان "الحس الروحي" بتجسد الرب؛ لأن الأيقونة تؤكد "إنسانيته"، وبقاء الأيقونة يؤكد التجسد ليمنع أكبر خطر تأتي به الخطية والشر عموماً، وهو تحول الشخص إلى فكرة مجردة في العقل لا وجود لها في الواقع الإنساني، وهو ما ينشر الاستبداد ويدعِّم الكراهية؛ لأن الآخر تحول إلى رقم أو أسم أو فكرة فقدت اتصالها بالواقع وأصبح القضاء عليه والاعتداء بكل صورة سهل وممكن.

ولم يكن تضخُّم موضوع "الخرستولوجي"، أي العلم الخاص بالمسيح – بالشكل المعاصر – إلاَّ ثمرة تحول المسيح من شخص حقيقي، إله متجسد إلى فكرة تجول في متاهات الفلسفة والدراسات اللغوية ... الخ. وعندما حذَّرْنا الإكليروس الذين يعلِّمون بأن الرب يسوع دفع ثمن خطايانا دمه على الصليب، من أن هذا يحوِّل صلب الرب إلى فكرة وحدث تاريخي لا يمس الحياة الإنسانية، لم يسمع هؤلاء، ولم يحملوا تحذيرنا محمل الجد؛ لأنهم ظنوا أن تقريب أو سهولة تقديم الإيمان أهم من المواجهة الحية مع المصلوب رب المجد.

الخطر الثاني:

هو إنكار التجسد بإنكار كل علاقة ممكنة بين الـــروح والمـــادة، الســـماء والأرض، وإنكار اشتراك العالم المنظور في هبة الخلاص وتحرير الخليقة المادية وعودتهـــا إلى الله في يسوع المسيح.

كما أن محاربة رسم الأيقونات تساوي محاربة الوجود الإنســـاني في الكـــون المنظور، وهي أيضاً تساوي محاربة دخول الله الابن ذات الكون المنظور بتجسده.

الخطر الثالث:

هو تكريم الأيقونات المبالغ فيه إلى درجة نسيان أن الأيقونة علامـــة تفـــتح الإدراك والوعي الروحي إلى ما هو فوق الخطوط والألوان والشكل، فهي علامة ترفع "الحس الروحي" إلى ما هو فوق، وهو سر حضور المسيح رأس الكنيسة الذي لا يمكن فصله عن جسده.

وعند تقديم البخور أمام الأيقونات لدينا نوعين من الأيقونات: الشـــعب، أي أيقونات الله، وأيقونات الرب ووالدة الإله والقديسين والشهداء .. كرامـــةً واحـــدةً للكل، ومجداً واحداً من الله للكل، ولكن تقوى العصر الوسيط أنكرت توزيـــع مجـــد المسيح على المؤمنين لكي تسهُل قيادتهم والسيطرة عليهم وممارسة سلطان يعلو علـــى سلطان المسيح نفسه.

الفصل الثالث

الأيقونة والحقيقة

كلمة الله في كتابنا المقدس توصف في التسبحة السنوية بأنها "أنفاس الله"، وهو تعبير دقيق يعود إلى (٢تيمو ٣: ١٦)[١] لأن الكلمة موحى به حسب الأصل اليوناني Θεοπνευστος هو *God-breathed*. ولذلك، ليس الكتاب المقدس "تنزيلاً" مثل "القرآن". وأنفاس الله هي ذاتها التي أعطيت لنا بعد قيامة الرب (يوحنا ٢٠: ٢٢)، وهي التي تُعطى في سر المعمودية والميرون وفي الرسامات. هكذا دخل الله دنيا الإنسان من خلال الحروف والأصوات الإنسانية التي اخترعها الإنسان نفسه لكي يشترك مع الله في إدارة وتطوير الكون وتطوير حياته نفسها بالشركة مع الله.

الكلمة أيقونة لفظية من حروف وأصوات، وهي بدورها تتحول من المنظور والمسموع إلى الباطن، إلاَّ ما يعلو على الكلمات. لكن هذا التحول لا يحدث ميكانيكياً في داخلنا، بل ينقلنا الروح القدس نفسه إلى مستوى الحقيقة، الحقيقة التي تعلو على المنظور، ولكن تبقى ظاهرة في المنظور، أي الكلمة مكتوبةً أو مسموعة.

ما بين الرسم بالحروف والرسم بالألوان فارق في فن التعبير؛ لأن الرسم بالألوان هو خطوط تنقل الواقع المنظور وتحوله إلى رؤيا داخلية عقلية تجعل طقس تكريس الأيقونات يصف الأيقونة بأنها "ميناء الخلاص"؛ لأنها مكان لقاء النفس مع الحقيقة الأعظم والأكبر التي تعلو على الرسم، مثلما تعلو الحقيقة الأكبر على الحروف.

---

(١) "كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ".

والمشكلة هي في التقوى الشعبية السائدة التي فشلت في تقديم السر الأكبر، وهو الحقيقة الإلهية المتجسدة في الابن، والتي توزِّع الحياة على أعضاء جسده لكي يبقى كل واحد منهم أيقونة المسيح الحية؛ لأن كلاً منهم خُلق أصلاً ليكون هذه الأيقونة (تكوين ١: ٢٦)، وتبقى الأيقونات شاهداً في مكانها في الهياكل وفي الحياة الروحية، تموت أجيال وتأتي أجيال، ويبقى الشاهد المرسوم أمام عيون وقلوب محبي الله.

الكاهن – الهيكل – المذبح – الذبائح

كهنوت الرب يسوع المسيح حقيقة ثابتة في كل التاريخ الكنسي حتى في مدارس حركة الإصلاح الأوروبية. لا يوجد أي جدل حول تلك الحقيقة الواحدة، وهي:

* الكاهن يسوع المسيح هو الوسيط بين الله والبشر.

فقد خصص الرسول رسالة العبرانيين – وهم العائدون إلى المسيح من اليهود – لكي يفصل بين الكهنوت والهيكل والمذبح والذبائح. وربما تجدر الإشارة إلى أن اعتبار رسالة العبرانيين هي من وثائق الجيل الثاني المسيحي، هو محض خيال لأن الرسالة تذكر كل طقوس وهيكل اليهود الذي كان لا زال قائماً حتى سنة ٧٠ ميلادية وهي سنة خراب أورشليم وهدم الهيكل على يد القائد الروماني تيطس، ولذلك عندما تخلو العبرانيين مثل غيرها من كتب العهد الجديد من الإشارة إلى هذا الحدث التاريخي، أي دمار الهيكل سنة ٧٠ ميلادية، يصبح الافتراض بأن الأناجيل ورسائل القديس بولس وغيرها كتبت بعد سنة ٧٠ هو وهم مريض.

كهنوت المسيح حقيقة ثابتة مؤكدة

عندما نقول إن كهنوت المسيح هو حقيقة ثابتة مؤكدة، فإن هذه الحقيقة تتأسس على أنه لا خلاص ولا مخلص آخر يمكنه أن يقدِّم الإنسانية إلى الله الآب غير

الابن الوحيد، وقد وضع أساس هذا التعليم الرب نفسه: "قال يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي" (يوحنا ١٤: ٦). وهو الكاهن إلى الأبد (عب ٧: ١٤ – ١٧)؛ لأنه "يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول فمن ثم يقدر أن يخلص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين يشفع فيهم" (عب ٧: ٢٤ – ٢٥).

المسيح هو هيكل العهد الجديد

عندما طرد الربُ الباعةَ من الهيكل وتذمَّر اليهود، أجاب يسوع بالآية التي تؤكد سلطانه في طرد الباعة: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه. فقال اليهود في ست وأربعين سنة بني هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام تقيمه. أما هو فكان يقول عن هيكل جسده. فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه انه قال هذا فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع" (يوحنا ٢: ١٨ – ٢٢)، فقد صار حلول ملء اللاهوت في هيكل جسده (راجع كولوسي ٢: ٩) هو الاستعلان عن حقيقة التجسد. هكذا حل تجسد الرب محل هيكل العهد القديم (أش ٦: ١) الذي كان مكان حلول وسكنى الله، وهكذا كان التجسد وراء اعتراف اسطفانوس بالحقيقة الإيمانية إن الله "لا يسكن في هياكل" (أع: ٤٨ – راجع أع ١٧: ٢٣)، وبسبب التجسد وسكنى الروح القدس فينا، صارت الكنيسة وكل فرد فيها هو "هيكل الروح القدس" (١كو ٦: ١٩).

وعندما قال الرب لنثنائيل: "الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون ويترلون على ابن الإنسان" (يوحنا ١: ٥١)، فقد تحقق ما رآه يعقوب عن السلم الذي يصل الأرض بالسماء "سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها وهوذا الرب واقف عليها (السلم) ..." (تكوين ٢٨: ١٠ – ١٥). "هذا هو بيت الله وباب السماء" (تكوين

٢٨: ١٦)؛ لأن ظهورات واستعلانات الله في العهد القديم كانت هي الإشارات النبوية عن تجسد ابن الله. هكذا فهم الآباء جميعاً هذه الرؤيا، لكن هذه الرؤيا سبقها التعليم الإلهي الذي تؤكده صلوات وضع حجر أساس الكنيسة:

> **"أنت فصلتنا عن الحياة الحيوانية شبه الوحوش، وأنعمت لنا بحكمة لنبني البيوت لنهرب من مضرات البرد والحر، أنت الذي جعلت روح الحكمة في بصلئيل بن حوري حتى يصنع خيمة (القبة) الاجتماع لأسمك القدوس المبارك (راجع خروج ٣١: ١ – ٤). فقد أعطيت نعمة الروح القدس وامتلأ بصلئيل "من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعته (تكوين ٣١: ٣)، فصارت البيوت وفي مقدمتها "بيت الله" هيكلاً طاهراً كهنوتياً بيدك القدوسة طهره وأتقنه ليكون أساساً وثيقاً"** (صلوات وضع أساس الكنيسة – نسخة البابا كيرلس الخامس ص ٤ – ٥).

ويلاحظ أن وضع الزهور والريحان والصلق وغيره مع سبعة قدور ماء عند وضع أساس الكنيسة الجديدة، هو علامة العودة إلى فردوس الله حيث مواهب الروح القدس السبعة، ولذلك عند بداية تكريس الكنيسة ترتل مزامير المصاعد التي كانت تقال عن الصعود إلى أورشليم في الأعياد وبالذات في عيد الفصح ابتداء من مزمور ١٢١: "فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب" حتى مزمور ١٢٩: "من الأعماق صرخت إليك"، ثم المزامير الخاصة بمملكة داود (مزمور ١٣١: "أذكر يا رب داود وكل دعته")؛ لأن داود الحقيقي يسوع المسيح بن داود هنا معنا[1] إلى مزمور اجتماع الشعب مزمور ١٣٢ "هوذا ما أحسن وأحلى الأخوة إذا سكنوا جميعاً" (حسب الأصل القبطي)، ثم مزمور الدعوة للصلاة مزمور ١٣٣: "باركوا الرب يا عبيد

---

(١) أسماء المزامير وجدناها في مقدمة سفر المزامير واستعمالها في ترتيب الأسرار لابن اسحق بن عبد المسيح القس الفيومي (مخطوطة ٢٠٣ سنة ١٠٣٢).

الرب"، ثم مزمور ١٣٤: "باركوا اسم الرب" وهو مزمور تسبحة الخلاص الذي اختار شعباً للخلاص وعبر به البحر الأحمر، ثم مزمور الشكر ١٣٥: "اشكروا الرب لأنه صالح"، وبعد الهوسات يقال مزمور ١٣٨: "يا رب بلوتني وعرفتني"، وهو مزمور العزة الإلهية للرب الحاضر في كل مكان "أين أذهب من روحك وأين أهرب من وجهك"، ثم تقال كل المزامير الباقية حتى نصل إلى ختام المزامير مزمور ١٥٠.

وجدير بالذكر أن مزمور ١٥٠ كان يرتل في ختام خدمة الهيكل في زمن الرب يسوع المسيح حسب دراسة A. Edershiem وهو حسب ترتيب كنيستنا هو خاتمة الليتورجية الخاصة بالوليمة السمائية الإفخارستيا؛ لأن الشعب قد دخل أرض الموعد، وهو هنا الكنيسة، وهي الفردوس، وأكل من شجرة الحياة جسد ودم ربنا يسوع، وصار إتحادنا بالثالوث هو ختام التسبيح.

وعندما تبدأ صلاة تكريس الكنيسة الجديدة بقراءة سفر التكوين الإصحاح الأول، فهي تعود إلى التعليم الإلهي الذي يحدد بداية كل شيء بالخلق، ويتبع ذلك رؤيا يعقوب للسلم، ثم الفصول الخاصة ببناء خيمة الاجتماع وتكريس البيت من سفر الخروج (أصحاح ٢٥ وما بعده)؛ وهنا نلفت النظر إلى أن وجود الشاروبيم في "قدس الأقداس" كان هو أول "أيقونة" تظهر في العهد القديم بعد أيقونة الإنسان.

وبعد قراءات من سفر العدد ويشوع بن نون وأسفار الملوك، وكلها عن الخدمة في خيمة الاجتماع، وبناء الهيكل على يد سليمان وتنظيم الخدمة فيه، تجيء نبوة حزقيال عن الهيكل الجديد (الإصحاح الأول، والإصحاح الأربعون)، ومن ثمَّ نصل إلى رؤيا يوحنا (ص ٢١) عن "السماء الجديدة والأرض الجديدة ومدينة أورشليم الجديدة – وهي هنا ليست أورشليم في فلسطين – وهي ليست "مسكن" كما ورد في الترجمة البيروتية، بل "هيكل ⲧⲥⲕⲏⲛⲏ الله مع الناس"، وهو ما تؤكده الرؤيا: "ولم أر فيها هيكلاً لأن الرب الإله ضابط الكل هو والحمل هيكلها" (رؤ ٢١: ٢٢).

فعندما زال الزمان وجاء التجديد بكل قوة الله، جاء الهيكل نفسه، الله والحمل؛ لأن الرؤيا مُباشرة وبلا علامات؛ لأن العلامات خاصة بالدهر الحاضر وحده[١].

والجدير بالملاحظة هو أن الفصول الخاصة بتجلي الرب على جبل طابور هي الفصول التي تقرأ في وضع أساس الكنيسة الجديدة.

الهيكل الجديد والذبائح الناطقة:

في صلاة تكريس الهيكل يقول الأسقف:

"أرسل روحك قدسك علينا لكي يطهرنا ويقدِّس هذا المسكن هيكلاً مقدساً لك وبيعة لشعبك المؤمنين، ليصلوا فيها نهاراً وليلاً ويذبحون لك فيها ذبائح ناطقة غير دموية لخلاص المسيحيين" (المرجع السابق ص ٣٦٠ – ٣٦١).

الهيكل هو مكان الذبح، والذبح هنا هو تقديم الحياة الإنسانية ذبيحة سماوية لله "أطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله (عبادتكم) λατρεια [٢] (العقلية) [٣] λογικη". وعندما غاب هذا الموضوع من تقوى العصر الوسيط ومنظومته اللاهوتية تعذَّر علينا أن ندرك أن الهيكل كـ "علامة"، حرص الترتيب الروحي أن يذكِّر كل مؤمن أرثوذكسي بالسجود أمامه، أي أمام الهيكل، ليس للوقار مع أنه مطلوب، وليس للاحترام رغم أنه واجب، بل لطلب قبول ذبيحة الحياة العقلية أو الناطقة أو اللوغسية (من اللوغوس)، تلك التي

---

(١) شرح سفر الرؤيا للعلامة Oecumenius – القرن السادس TEG8:277.

(٢) كلمة "عبادة" ليس لها علاقة بالمرة بالعهد الجديد كله، والكلمة اليونانية تعني "خدمة"، ومنها أخذ القداس أسم الليتورجية أي الخدمة، وهي الاسم القديم الرسولي.

(٣) العقلية ليس بالمعنى السائد الآن أي الفكر وحده، بل ما هو خاص باللوغوس λογος أي الحياة الداخلية التي تأخذ معها الجسد نفسه ذبيحة عقلية أو ناطقة.

تبدأ برشم الصليب علامة الانضمام لجسد المسيح الكنيسة، وهي الذبيحة التي تجمـــع كل الذبائح الأخرى.

الكنيسة علامة ومثال السماء:

تحمل الكنيسة عدة أسماء: "بيت الملائكة"، و"قدسٌ لاسم المســيح"، ولكــن حسب صلوات التكريس، الكنيسة هي **πτγποc** أي مثالات السماء، وهنا علينا أن نلاحظ ما تقوله الصلوات عن البيت المقدس (الكنيسة):

"أرسل عليه شعاعات نورك،
قدسه وأملأه من روح قدسك.
أجعل فيه خاتم خلاصك،
وفعل قوتك،
أملأه من مجد لاهوتك.
ليكون بيت بركة وتسبيح،
ومجداً وإكراماً لاسمك القدوس" (المرجع السابق ص ٣٧٦).

وتمتلئ العلامة (الكنيسة) من حضور أقنوم الروح القدس:

"أرسل لنا من علوك المقدس،
ومن مسكنك المستعد (الابن المتجسد)،
ومن حضنك غير المحصور (الآب)،
البارقليط الروح القدس الأقنوم القوي المحيي،
الناطق في الأنبياء،
الكائن في كل مكان،
المالئ الكل،
الفاعل الكل بسلطانه،

.....

المنبثق منك،

المشارك كرسي مجدك" (المرجع السابق ص ٣٧٩ – ٣٨٠).

هكذا نفهم العبارة القديمة التي تصف الكنيسة بـــ "بيت الحمامة"، أي "بيت الروح القدس".

وبعد الاستدعاء تبرز ملامح الكنيسة كعلامة ومثال للسماء:

"هيكلاً مقدساً،

....

بيتاً للخلاص".

لكن لاحظ:

"مذبحاً للمؤمنين،

"مذبحاً سمائياً،

"مجمعاً للملائكة،

"مسكناً لمسيحك".

ويظهر البعد السمائي:

"محلاً للشاروبيم".

فالهيكل كان أيقونةً في العهد القديم، ولكنه صار الآن مـــاثلاً وحاضـــراً في الصلوات التي تشترك فيها الكنيسة مع القوات السمائية:

"أحسب أصواتنا مع غير المرئيين"؛

لكي تنطلق التسبحة: "قدوس .. قدوس .. قدوس رب الجنـــود .." (أش ٦: ١)، وهكذا يكون هذا البيت:

"تسبيحاً للسارافيم،
راحةً للشهداء"[١].

"معمل المواهب السماوية"(المرجع السابق ص ٣٨١ – ٣٨٢).

ومعمل المواهب هو الرب نفسه حسب صلواتنا الأرثوذكسية؛ لأن مواهـــب الروح القدس فاضت علينا من الرب يسوع. وكلمة معمـــل اليونانيـــة – القبطيـــة **ⲟⲩⲉⲣⲅⲁⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ** هي لقاء القوة الإلهية فينا نحن لكي توحِّـــد إرادتنـــا بـــالإرادة الإلهية. وحسب الصلوات اليونانية الأرثوذكسية القديمة هي "**تألُّه العزم**" الإنساني لكي يصل إلى سر الإتحاد بالثالوث.

الكنيسة هي مكان وليمة الحمل والعرس الإلهي:

تقول نفس الصلاة السابقة:

"داعياً كل أحد إلى العرس المزين
والوليمة السمائية
كي يدعون فيه الآتين إليك
ليأخذوا النور الجديد الذي بحميم الميلاد الجديد، ...
ويكملوا الذبيحة الناطقة التي هي سرائرك المقدسة" (المرجع السابق ص ٣٨٣).

ويتجلى استعلان الوليمة برشم المباني بالميرون، وبذكر أساسات الإيمان الـــتي وصفها الآباء:

---

(١) عن خولاجي من القرن الثالث عشر "يستريح الشهداء معنا لأنهم سحابة الشهود (عب ١٢: ١) الذين يراقبون في شوق ذبائح المؤمنين".

"طوفوا في صهيون
أيها الرعاة وعيِّدوا فيها
وأنطقوا في بروجها
لأن المسيح إلهنا في وسطها
هو حصنٌ لها فلا تزول إلى الأبد" (المرجع السابق ص ٣٩٣).

الكنيسة حسب هذه الصلوات تدعى:
"بيت العلي،
والقبة التي تدعى قدس الأقداس،
وفردوس الله الذي سبق فغرس فيه الشجرة المحيية،
أي الصليب المكرم،
وهي واحدة من مدن الملجأ التي أشار إليها موسى:
إن من يهرب ويدخلهم لا يُنتقم منه".

وعند ذكر الشهداء:
"ليس موتى ولا قتلى" (المرجع السابق ص ٣٩٤ – ٣٩٥).
لأنه لا يوجد عضو في جسد المسيح الحي يعاني الموت، ومن ينكر ذلك فهو ينكر القيامة دون أن يدري.

تكريس المذبح

يقال مزمور ٢٣ (٢٢ حسب الطقس وحسب ترتيب السبعينية)، وهذا المزمور كان يقرأ بالآرامية في زمن سبق تجسد الرب يسوع المسيح، وكانت هذه هي ترجمة المزمور (ترجوم):
"هيأت قدامي مائدة ملآنة من المن".

ثم المزامير الخاصة بمذبح العهد القديم (مزمور ٢٤ – مزمور ٢٦) ومزمور ٢٦ هو تأكيد على أن المذبح هو "مذبح الله": "أغسل يدي بالنقاوة وأطوف بمذبحك لأسمع صوت تسبحتك"، ثم مزمور ٢٧: "الرب نوري وخلاصي"، وهو طلب السكنى في بيت الرب – مزمور ٩٣: "الرب قد ملك ولبس البهاء"، وهو مزمور تجلي الرب الذي كمل في العهد الجديد.

ثم تأتي الطلبة بعد ذلك، وهي طلبة تؤكد كمال التدبير بتجسد الرب، وهو العنصر الأساسي الغالب في الصلوات، لكن يجب أن نقف برهة أمام هذه العبارات:

"أيها الخالق كلمة الله الآب ...
الذي تأنس من العذراء القديسة مريم؛
لكي ينقذنا نحن خليقته من قبل كنيسته، وأنعم لنا بها ...
أيها البكر من الآب غير المرئي ...
البكر من الأموات حتى يخلص بيعته ويقيمنا معه،
ويجعلنا شركاء لأن نجلس معه في السموات ...
الذي أعطى مثالاً ⲧⲩⲡⲟⲥ في البدء لرئيس الآباء إبراهيم عندما تبارك
من ملكي صادق بواسطة الخبز والكأس[1]
مثالاً لنعمة العهد الجديد الذي أُعطي للبيعة" (المرجع السابق ص ٤١٦ – ٤١٧).

وتقدمة الخبز والخمر أو الكأس هي الأصل الكتابي والتاريخي لاستخدام كلمة "قربان" الآرامية – السريانية أي التقدمة، وهي الأصل الليتورجي لكلمة "ذبيحة".

وتذكر الطلبة بعد ذلك رؤيا يعقوب، والمثالات التي صنع موسى القبة طبقاً لها، كما تؤكد الطلبة أيضاً أن تابوت العهد المطلي بالذهب والخشب الذي لا يسوس

---

(١) تقديس الخبز والكأس هو تقليد عبراني قديم ورد في شرح سفر التكوين في عصر سبق تجسد ربنا (راجع بحثنا ملكي صادق في التراث السكندري مجلة الدراسات اللاهوتية مجلد ٥٧ – ٢٠٠٠ ص ٢٥٨ – ٣٩٠).

يشير إلى البشرية غير الفاسدة (ناسوت الرب) وقسط المن هو "مثال خبز الحياة الذي نزل من السماء" (المرجع السابق ص ٤١٨ – ٤٢٣).

أما "**المذبح الذي يظلله الشاروبيم من أجل اللاهوت غير المرئي**" (المرجع السابق ص ٤٢٤)، فهو يؤكد لنا أنه العرش الإلهي، وليس قبر الرب الذي ظهر عنده الملاكين، وهو سبب وجود الشمعتين على المذبح.

ولذلك، فما أعظم الكلمات التي تصف المذبح:

"موضعاً للغفران،

مجمعاً للملائكة،

ميناء الخلاص،

مظلة طاهرة،

مذبحاً سمائياً،

موضعاً لطهر الأنفس المتدنسة

إذ تقدموا بواسطة التوبة" (المرجع السابق ص ٤٢٧).

تجديد العهد والمذبح الجديد:

لقد جاء العهد الجديد تجديداً للعهد القديم، وهو موضوع غائب من الفكر المعاصر؛ لأن الكنيسة بُنيت لكي تكمل استعلان الله في يسوع المسيح، ليس بتطابق العهدين، وإنما بكمال البناء؛ لأن أساس البناء ليس مثل البناء، رغم أن البيت واحدٌ والذي بناه الله (عب ٣: ٣). تقول الصلاة:

"السيد الرب الإله ضابط الكل الحقيقي خالق سائر المخلوقات

الذي جدد كل ترتيب (طقوس) الكهنوت في بيعتك المقدسة الواحدة

الوحيدة الجامعة الرسولية" (المرجع السابق ص ٤٣١).

لاحظ:

"الذي بسبب فيض الغفران الذي هو مذبحك الناطق الذي فوق السماء (وهو هنا المسيح الرب) **الذي قال أنْ يُبنى له قبة على الجبل المقدس** (إعلانات العهد القديم عن الهيكل).

لكن هذا هو الجانب العظيم:

"وفي آخر الأيام بظهور ابنك الوحيد ثبَّت مذبحاً عقلياً (إرادة الرب يسوع) **للذبيحة الغير الدموية الناطقة** (أي ليست ذبائح العهد القديم الحيوانية) **في بيعتك المقدسة** ..

أرسل علينا نعمة روحك القدوس،

وعلى هذه المائدة الموضوعة أمام مجدك[1] القدوس،

وليكن مذبحاً روحياً بخدمة الكهنوت

للصعيدة الناطقة غير الدموية

التي للجسد والدم الكريم

الذي لابنك الوحيد" (المرجع السابق ص ٤٣٣).

تطابق المرئي والمنظور مع غير المنظور:

كلمات الصلاة لا تحتاج إلى تعليق:

"أيها المسيح إلهنا الجالس على الشاروبيم والسارافيم ...

يا من هو في حضن أبيه جالس

وفي أحشاء العذراء متجسداً منها

الذي رئيس الآباء يعقوب صرخ من أجل أمه العذراء قائلاً:

---

(1) تدحض صلوات التكريس كل جدل معاصر عن مواهب الروح القدس لأن الروح القدس الأقنوم الثالث هو مقدِّس الكنائس، والمواهب لا تقدِّس.

إن هذا هو بيت الله، وهذا هو باب السماء" (المرجع السابق ص ٤٣٤-٤٣٥).

ولذلك حرص الفنان القبطي أن يكتب على باب الهيكل:

"هذا هو باب السماء، أو هذا هو باب الرب".

وهكذا يكون الاستعلان القديم قد تحقق، ولذلك تقول الصلاة بعد ذلك عن المذبح إنه:

"عرش (كرسي) ملكوتك" (ص ٤٤٥).

"محلاً لروح قدسك" (ص ٤٦١).

الفصل الرابع

المذبح في الكنيسة الجامعة ومنظومة الأصولية الإنجيلية[١]

من يمسك بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد عليه أن يلاحظ – إذا كان يبغي الحقيقة – أن:

١– الكتاب المقدس لا يمكن فصله عن تاريخ الشعب القديم، ولا عن تاريخ الشعب الجديد، أي كنيسة المسيح التي انتشرت شرقاً وغرباً من أورشليم إلى أقاصي المسكونة في عصر الإمبراطورية الرومانية، وأقاصي المسكونة في عصر شبكة المعلومات. هذا التاريخ العبراني، وتاريخ الأمم، أي الشعوب التي قبلت الإيمان بالمسيح، كانت لهم مدارس وكتب تفسير عرفها التراث العبراني الممتد من عصر ظهور كتابات علماء الشريعة من اليهود إلى عصر الآباء الذين كتبوا في فلسطين مثل يوستينوس الشهيد، وفي إنطاكية أغناطيوس، وفي الإسكندرية بنتينوس، وفي روما هيبوليتوس، ثم بعد ذلك القسطنطينية، الرها، نصيبين. تراثٌ دوِّن أغلبه باليونانية – اللاتينية – السريانية – القبطية – الأرمنية القديمة (جرجورين).

٢– جاءت محاولة وضع الكتاب خارج التاريخ الكنسي في القرن الثالث عشر وليس في عصر الإصلاح البروتستانتي. وقد شبعنا من أكاذيب الجهل التي

---

(١) الأصولية هي أقرب ترجمة عربية للكلمة الإنجليزية Fundamentalism.

نسمعها في الشرق الأوسط لا سيما مصر، ذلك أن الكنائس المشيخية (الإنجيلية) التي أسسها كالفن هي ثمرة حركة النهضة التبشيرية في الثامن عشر والتاسع عشر، ولا توجد بينها وبين كتابات كالفن سوى صلة وهمية شبه تاريخية، وعلى من يريد أن يتحقق من صدق ما نقول، أن يطلب مؤلفات كالفن الذي توفى عام ١٥٦٤م ويسأل عن الترجمة العربية لهذه المؤلفات، وما علاقة مؤلفات كالفن بلاهوت حركة النهضة الإنجيلية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وهي الحركة التي تركت لاهوت كالفن الخاص بالعشاء الرباني وعمل الروح القدس وأهملت كتاب الصلوات الذي وضعه كالفن في جنيف.

والإدعاء بأن الكنائس الإنجيلية في الشرق العربي على صلة بمارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦)، هو كذبة كبرى يصدقها الجهلاء، ساعد على نشرها كتب الإرساليات الكاثوليكية التي جعلت من مارتن لوثر كبش الفداء في كل ما يُنسب إلى الحركة الإنجيلية، وما أبعد الفرق بين لوثر وكالفن.

٣– هل يمكن لمن أراد البحث عن الحقيقة التاريخية التي لا يرقى إليها الشك أن يكوِّن صورة كاملة عن الكنيسة من العهد الجديد وحده؟

الجواب: هو هل يمكن لمن يرى بذرة أن يصف الشجرة التي تنمو من هذه البذرة.

لقد فتح علماء العهد الجديد في كل الكنائس المسيحية الكاثوليكية وغيرها ملف العبادة في العهد الجديد – مع ملاحظة أن كلمة عبادة غريبة على مفردات العهد الجديد اليوناني والقبطي، وليس لها علاقة بالعقيدة المسيحية.

وهنا دون أن ندخل في متاهات البحث نقدم للقارئ خلاصة هذه الأبحاث التي قدمها *O. Cullmann – C. Moule* وقبل هؤلاء *Lietzmann* وبعده *J. Danieluu* إضافة إلى جيش من علماء ومؤرخين .. لكن الجهل الذي عشش في

رؤوس قادتنا يمنع تدريس تاريخ الصلوات والقداسات والليتورجيات، أو يحاصرها في تدريس ما هو يمارس الآن.

لا يجب أن نخاف من التاريخ؛ لأن الحقيقة الغائبة هي أن التاريخ لا يمكن أن يحاكم أو يحكم على الكنيسة الجامعة؛ لأنها هي الأم التي ولدت هذا التاريخ.

٤– يخاف الأصوليون من التاريخ؛ لأن التاريخ يفتح باب الشرح التاريخي الذي يتعارض مع كل النزعات الفردية والشخصية؛ لأن قاعدة الأصولية الأولى هي حذف التاريخ أو تجاهله تماماً، وقطع نص مقدس من السياق نفسه، وحذف مكونات النص اللغوية والخلفية الحضارية والأسباب التي جعلت هذا النص يظهر في هذا السياق بالذات.

لا يوجد دواء للأصولية سوى فتح ملفات التاريخ.

٥– هكذا بعد هذا التحذير الذي لن يرُق للأصوليين، علينا أن نقدم نموذجاً من الشرح التاريخي، والشرح الأصولي لنص رسالة العبرانيين:

"لنا مذبح لا سلطان للذين يخدمون المسكن أن يأكلوا منه".

(عب ١٣: ١٠).

* السياق أو السرد (عب ١٣: ٧) حيث يؤكد وجود كنيسة سبقت تدوين الرسالة: "اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله. انظروا إلى نهاية سيرتهم وتمثلوا بإيمانهم".

* أسس الإيمان الخلفية (عب ١٣: ٨): "يسوع المسيح هو أمساً واليوم والى الأبد".

* تحذير رعائي وهو جزء مكون للخلفية التاريخية (عب ١٣: ٩). "لا تساقوا بتعاليم متنوعة وغريبة".

* سبب التحذير هو عدم العودة إلى الممارسات اليهودية (عب ١٣: ٩): "لأنه حسن أن يثبت القلب بالنعمة لا بأطعمة لم ينتفع بها الذين أكلوها".

* "لنا مذبح": لا يمكن أن يكون هذا المذبح هو مذبح الهيكل؛ لأنه على ما يبدو من التاريخ أنه هُدِم في سنة ٧٠ أي في زمن سابق لكتابة الرسالة. ولكن مع الافتراض بأن الهيكل لا زال قائماً، "لا سلطان للذين يخدمون المسكن"، وخدعة النص العربي أن الكلمة اليونانية ليس "المسكن"، بل هي σκηνή - tabernacle المستخدمة للهيكل في السبعينية. أما كلمة "يخدمون" فقد وردت قبل ذلك، فهي خاصة (بالعبادة) أو "الخدمة"، وهي أصل كلمة ليتورجية.

ولاحظ أن عدم الإلمام باللغة اليونانية أضعف الصلة بين الكتاب المقدس والتاريخ الكنسي.

حسب النص العربي لأعمال الرسل (١٣: ٢):

"وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس، في حين أن النص اليوناني هو: " λειτουργούντων δὲ αὐτῶν τῷ Κυρίῳ "، والترجمة العربية الصحيحة هي: "وبينما هم يقيمون الليتورجية".

وما خدمة المسكن، أي خدمة الهيكل في عب (١٣: ١٠) إلاَّ الخدمة المسيحية.

التاريخ الكنسي يؤكد وجود المذبح "θυσιαστηριον".

فقد ورد عند أغناطيوس الأنطاكي في الرسالة إلى أفسس الفصل ٥، وفي الرسالة إلى مغنسيا الفصل السابع، وغيرها. وعند القديس ايريناوس (ضد الهرطقات كتاب ٤ فصل ١١: ٦). وترتليان (الأكاليل فصل ١٩). والشهيد كبريانوس (الرسالة ٤٠). وديونيسيوس السكندري (في الرسالة إلى باسيليوس، المائدة المقدسة في الهيكل).

ولا زالت الليتورجيات تحفظ اسم "المائدة"، أو "المائدة المقدسة".

هذه شهادة مسكونية من الشرق والغرب معاً. وفي شرح العبرانيين لآباء الكنيسة في القرن الرابع والخامس وما بعدها. فكيف يمكن إنكار حقيقة تاريخية مسكونية التزمت بها الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً.

ونشير هنا إلى علماء العهد الجديد الذين التزموا بالشرح التاريخي، وهم:

L.Oulton – C. Cambier, Theissen Williamson, Thompson.

ويمكن مراجعة القائمة عند *Harold W.Auttridge* في شرح العبرانيين سلسلة دراسات:

Hermeneia, Fortress Press, 1989 Pages 396 - 397.

ويضع نفس المؤلف *Harold . W. Attridge* قائمة بأسماء الذين قالوا إن المذبح هو الجلجثة (المرجع السابق ص ٣٩٦ حاشية رقم ١٦)، لكن هذا التفسير غير تاريخي للأسباب الآتية:

أولاً: لم يكن الرب قد صُلب في هيكل، ولم نسمع أن الجلجثة صار لها اسم هيكل في كل المصادر القديمة.

ثانياً: هناك خدمة في الهيكل حسب كلمات العبرانيين (١٣: ١٠) وهي ليست صلب الرب يسوع.

ثالثاً: الرسالة إلى العبرانيين تحارب بشدة العودة إلى ذبائح العهد القديم والشريعة الخاصة بالأكل والتطهيرات[١]، ولذلك هي تضع المذبح والإفخارستيا ليس تحت سلطان الذين يخدمون، بل خارج هذا السلطان؛ لأنه سلطان المسيح نفسه الذي يوزع جسده ودمه بنفسه وبواسطة الذين يخدمون.

---

(١) عادت إلينا في عصرنا الحديث بفضل بعض قادتنا.

الخلفية الحضارية والثقافية لمنظومة العصر الوسيط الأوربي

لم تصدر دراسات عربية مصرية عن العصر الوسيط إلاً كتابات أستاذنا يوسف كرم: الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، وفلسفة العصور الوسطى للدكتور عبد الرحمن بدوي.

وهناك مقالة نادرة للدكتور رودلف يني (رد له الله الصحة والعافية)، حاول فيها أبراز التعارض بين الأرثوذكسية والفكر المدرسي *Scholastics* ولكن مثل هذه الأبحاث الجيدة تضيع في زخم الضغط الفكري السائد الذي يمارس من داخل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي يريد بعض قادتها أن يرثوا العصر الوسيط الأوروبي مع خليط من العصر الوسيط القبطي، فقد حاول الأنبا شنودة الثالث طوال زهاء ربع قرن فرضه بالقوة وفشل، وسوف يفشل معه الآخرون.

لكن يمكننا هنا حصر أهم مقولات الفكر اللاهوتي في الآتي:

* انفصال السماء عن الأرض.
* المسيح هو رأس الكنيسة المنتصرة.
* البابا هو رأس الكنيسة المجاهدة والقديسين وسطاء.
* الأسرار الكنسية هي وسائط نعمة.
* النعمة هي معروف وإحسان إلهي، وليس يسوع المسيح نفسه.
* التقديس هو حياة بلا خطية.

وجاءت حركة الإصلاح الأوروبي البروتستانتية لكي تضع العكس:

* المسيح هو رأس الكنيسة.
* إلغاء الكهنوت.
* الأسرار هي ذكرى لما تم على الصليب (وهو خطأ وقع فيه الأنبا شنودة الثالث نفسه).

* التبرير بالإيمان يلغي فاعلية الأسرار.
* التقديس هو السلوك اليومي المسيحي.
* الكتاب المقدس وحده هو مصدر التعليم.

إعادة اكتشاف الآباء والقديس أوغسطينوس في مطلع القرن العشرين:

عندما شطرت حركة الإصلاح الكنيسة في الغرب، كان الصراع التاريخي يدور حول علاقة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بالتراث الآبائي. وخصص الأب يعقوب Migne نفسه مع غيره لتحقيق وطبع كل كتب الآباء في مجموعتين: الآباء الذين كتبوا باليونانية – والآباء الذين كتبوا باللاتينية. واستخدم علماء الكنيسة اللوثرية والكنيسة الأنجليكانية دراسات الآباء في الرد على كنيسة روما، الأم الروحية لكل كنائس الغرب. ولا زالت الأبحاث تقدم حتى هذه اللحظة.

كانت إعادة اكتشاف القديس أوغسطينوس في القرن العشرين بمثابة إعادة جرعة الجانب المستيكي إلى اللاهوت، ثم تبعه إعادة اكتشاف التراث الروحي في الكتابات المستيكية التي تعود إلى بداية العصر الوسيط للأب ايكهارت والقديس برنار – وناسكات ألمانيا وانجلترا وأيرلندا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا، وما أكثر هؤلاء من رجال ونساء ورهبان وراهبات استطاعوا أن يشربوا من بحر المحبة الإلهية[1] وأن يعيدوا الجانب المسيحي القديم الغائب من اللاهوت العقلي، وهو المعرفة التي تنبع من الاستنارة بسكنى الروح القدس في القلب. ومن المحبة نفسها التي تغرس معرفة مستيكية أكبر من المعرفة العقلية.

---

(١) لا تزال المطبعة البولسية Paulist تنشر هذه المجلدات باللغة الإنجليزية، وقد صدر منها قرابة ١٠٠ مجلد في سلسلة Classics of Western Spirituality.

رفض التاريخ الكنسي هو فضيحة للعقل الأصولي:

يمثل رفض التاريخ الكنسي أكبر أركان الفضيحة الفكرية للعقل الأصولي الذي يمسك بالكتاب المقدس وحده لكي يحكم به على الماضي، والحاضر والمستقبل.

ففيما يتعلق **بالماضي**، فهو يرفض ما هو ثابت تاريخياً في تراث عالمي شرقي – غربي عرفته الكنيسة الجامعة، ليس فقط في القرون الخمسة الأولى، بل في القرون العشرة الأولى، أي ألف سنة قبل انقسام الكنيسة المؤلم والحزين.

وهو يرفض **الحاضر**؛ لأن رفض التاريخ يتجلى في هجوم شرس باسم الكتاب المقدس لا يميز فيه قادة هذا الهجوم بين الممارسة الشعبية والفلكلورية، وبين الأرثوذكسية في أصالتها التاريخية (تماماً كما يفعل د. حنين وغيره).

أما بالنسبة **للمستقبل**، حيث تتنافس الشيع والمذاهب المختلفة ذات الفكر الأصولي على هدم الأسرة وتفتيت الجماعة المسيحية.

وهكذا ولدت الشيع وتأصلت برفض التاريخ العام، وتكوين تاريخ خاص بها، وتظهر خطورة التاريخ الخاص فيما يخلقه من مشاكل، نورد أهمها كالآتي:

* خلق تفاسير وشروحات شخصية تعبِّر عن رؤية ذاتية دون العودة إلى النص الكتابي نفسه في لغته الأصلية. ولعل أكبر مثل على هذا هو قطع كلمة "فدية" من السياق العام في العهد القديم؛ لأن الله الفادي لم يدفع فدية لكي يفدي شعبه، ولأن الفعل في اليونانية يعني تحرير وفك الأسرى.

* خلق أو تكوين ترتيب (للعبادة) في يوم الأحد بشكل خاص يعبِّر بكل اتجاهاته في صلوات وتراتيل تهدف إلى تأصيل فكر أو مذهب هذه الشيعة. ومجال الحديث عن التراتيل بشكل خاص يحتاج لدراسة مطولة، ولكن نظراً لضيق المجال نورد كمثال ترتيلة "قد قضى ديني كله الحمل". فهذه الترتيلة نسمعها في اجتماعات أرثوذكسية، في حين أنها تكرس لفكرة أن الصليب صار ثمناً ودفعاً للدين، وبذلك

تفصل العبادة – على هذا المستوى – بين "الحمل" الذي يقدَّم على المذبح، والحمل الذي دفع الدين على الصليب، الأمر الذي يترتب عليه التساؤل عن ضرورة "الحمل" الذي يقدَّم على المذبح.

وهناك مثل آخر، فقد سمعت ترتيلة تقول: "أنا مصنوع من صخر غير قابل للكسر ...". وسألت الخادم: هل نحن مصنوعون من "صخر،" أم "خُلقنا من جديد في يسوع المسيح"؟ لماذا لا تقول "أنا مصنوع من يسوع"؟ ونظر إليَّ في بلاهةٍ، لأنه ليس خليقة جديدة في يسوع المسيح بعد، بل هو "صانع ذاته"، إنه لم يُخلق من جديد بواسطة الآب في الابن، بل خلق نفسه بواسطة الصلوات والتراتيل.

عندما تقابلت مع الأب متى المسكين عام ١٩٨٨، دار الحديث حول ما يحدث في الكنيسة، وسألني عن أهم ما كتبه، فقلت له دون تردد: كتاب صغير جداً عنوانه "الخلقة الجديدة". ودُهِش الرجل العظيم، وقال لي: لماذا؟ فقلت له: لقد تاهت الكنيسة في مصر عن الخلقة الجديدة، وأصبح كل إنسان خالق لنفسه وليس مخلوقاً بواسطة الإيمان. فقال الأب متى المسكين: هذا كلام خطير .. ودار حديث طويل سوف ينشر قريباً.

الأصولية الكتابية ورفض حرية المحبة:

عندما تكلم القديس باسيليوس عن الاتجاه للشرق، وتمجيد الثالوث، ورشم الصليب، وغيرها[1]، فقد كان يسجِّل التسليم الكنسي الذي نُقل من جيل إلى جيل؛ لأن الكتاب المقدس بعهديه لم يؤسِّس الكنيسة، وإنما تظن المذاهب الإنجيلية وغيرها – حسب ظن المؤسسين – أنها هي التي أُسِّست على الكتاب المقدس.

ولكن لماذا يذكر القديس باسيليوس رشم الصليب وغيره من العلامات؟

---

(١) راجع كتاب "الروح القدس" للقديس باسيليوس.

الجواب هو؛ لأننا لم نستلم من الرب نفسه موضوعاً معيناً للصلاة غير الصلاة الربانية، وأن الرب ترك لنا حرية الممارسة لكي تحفظ لنا هذه الحرية محبتنا له، وتعلن محبته لنا بالروح القدس واهب هذه المحبة (رو ٥: ٥).

حرية المحبة ألزمت الذين صُلبوا مع المسيح (غلا ٢: ٢٠) أن يضعوا علامة الصليب على كل شيء، وأن يصبح الصليب هو "علم النعمة"، و"طريق حرية المحبة"، وأن تظهر الأناشيد المسيحية في كل مكان لكي تصبح حياة المسيح أناشيد وصلوات، بل ومنهجاً للحياة. ولم يكن وراء هذا كله سفراً أو معنى أو آية من الكتاب المقدس، بل كان نمو رؤية المحبة التي تتحرك في حرية حسب التسليم الرسولي.

لكن عندما تطلب الأصولية آيةً أو وصيةً من الكتاب المقدس تكون بمثابة دليل على ممارسات العبادة مثل الثلاث غطسات في المعمودية أو تقديم البخور أو الاتجاه للشرق، فهي تصادر التاريخ الكنسي وتصادر حرية المحبة.

الترتيب هو الطقس حسب التعليم الرسولي:

مرة أخرى نؤكد أن انقطاع العلاقة مع تراثنا الآبائي والأرثوذكسي بشكل خاص، كان أحد أسبابه هو اختلاف لغة الكتاب المقدس عن لغة الصلاة، واختلاف لغة الصلاة عن لغة التعليم، وتجاهل العودة إلى الأصل.

إن أحد أسباب ضعف حياتنا الروحية نفسه هو فقدان العلاقة اللغوية بين الكتاب المقدس وصلوات الكنيسة؛ لأن نقل هذه الصلوات من اليونانية والقبطية إلى العربية قد أضعف استيعاب المعنى، بل والمعاني التي تحددها الكلمات الأصلية. على سبيل المثال كلمة "رئاسة الكهنوت"، فقد فهم القارئ – حسب تطور اللغة العربية – أنها رئاسة بالمعنى السياسي والاجتماعي، ولكن حسب الأصل اليوناني والقبطي `Ⲙⲙⲉⲧⲁⲣⲭⲏⲉⲣⲉⲩⲥ لا تعني كلمة ⲁⲣⲭⲏ الرئاسة بهذا المعنى، بل

هي تعني: البدء – الأول - الأصل، ولذلك الأسقف هو الأول في الكهنـــوت، هـــو الأصل؛ لأنه خليفة الرسل، ولكنه ليس الرئيس كما هو في النظام الجمهـــوري، أو في قيادة الجيوش ... الخ ولذلك عندما نذكر الكلمة اليونانية "طقس"، نجد أنها قد وردت في العهد الجديد **ⲧⲁⲝⲓⲥ** عشر مرات هي بالتحديد (لوقا ١: ٨ – ١كو ١٤: ٤٠ – كولوسي ٢: ٥ – عب ٥: ٦، ١٠ – ٦: ٢٠ – ٧: ١١ (مرتان)، ١٧، ٢١)

وبالطبع لم نكن نتوقع من المرسلين الأمريكان الذين نشروا الترجمة البيروتية أن يقدموا لنا نصاً عربياً دقيقاً – هذا ليس اتهام لأحد – وإنما حسب الترجمة البيروتية عن زكريا الكاهن أب يوحنا المعمدان:

"وبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله .. (لوقا ١: ٨)، ضـــاعت كلمـــة طقس تماماً لكن الصحيح هو:

"وبينما هو يخدم ككاهن في طقس خدمته ..."

"εν τη ταξει της εφημεριας"

الطقس هنا هو بلا شك هيكل العهد القديم.

ولكن في خدمة العهد الجديد، وبسبب تنوع مواهب الروح القدس، يقـــول الرسول: "ليكن كل شيء بلياقة وبحسب الطقس أو الترتيب" (١كو ١٤: ٤٠). وفي كولوسي: "وإن كنت غائباً في الجسد لكن معكم في الروح فرحاً ونـــاظراً تـــرتيبكم ومتانة إيمانكم في المسيح" (٢: ٥)، أي "ناظراً طقسكم ومتانة إيمانكم".

وقد دخلت كلمة "**رتبة ملكي صادق**" خلسة في الترجمة العربية البيروتيـــة؛ لأن نص عب ٥: ٦ هو عن الرب نفسه الذي **لم يكن له رتبة كهنوتية**، بـــل **طقـــس** ملكي صادق، وتكررت في (عب ٥: ١٠ – عب ٦: ٢٠ – عب ٧: ١١ مرتين – ٧: ١٧، ٧: ٢١).

فهل كانت خدمة الكنيسة بلا طقس، أي بلا ترتيب في عصر الرسل؟

بكل تأكيد لا. وإن كان العهد الجديد لم يقدم لنا وصفاً دقيقاً كاملاً، فإن شذرات متفرقة سوف تدرس في الفصل التالي تؤكد الحرص الرسولي على طقس يوحِّد الخدمة والكنيسة معاً، أمَّا ترجمة كلمة "طقس" إلى "رتبة"، فهي خلل لغوي لا ندري له سبباً، ولكن لم يأت المسيح على رتبة كهنوتية قديمة، وإنما على طقس تقدمة الخبز والخمر، وهو ما يستوجب العودة إلى الترجمة العربية للكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي أُهملت بسبب التراع المؤلم والحزين بين من تولى نشر هذه الترجمة، وهو أستاذنا العظيم الأنبا غريغوريوس الذي حورب بكل أنواع العنف المكشوف والمبطن، وبين من حاربوه، وتوقف المشروع دون أن يتم.

لابد من فتح ملفات التاريخ الكنسي، فهي شهادة حق للأرثوذكسية. والذين يحاربون فتح ملفات التاريخ الكنسي عن جهل وخوف هم دعاة نشر الممارسات الشعبية – غفر الله لهم زج الكنيسة في مستنقع الخرافات والخزعبلات.

الاتهام بالوثنية:

لديَّ قناعة راسخة – مبنية على أكثر من دليل دامغ قاطع – بأن عقيدة التجسد الإلهي قد غابت تماماً عن الممارسات السائدة في الكنيسة، وعن الكتابات القبطية، وعن الوعي الكنسي، وهو ما يظهر في عظات وأناشيد عيد تجسد الرب الذي تحول إلى عيد الميلاد. وما أعظم الفرق بين "ميلاد"، و"تجسُّد".

كان الأب متى المسكين هو أول من حوَّل الأنظار إلى هذه الحقيقة الغائبة، وهي أن الله نفسه جاء واشترك في إنسانيتنا، وصارت "بيت لحم مسقط رأس البشرية المفتداة"، لكن هيهات، فقد ضاع التحذير من إهمال تجسد ابن الله في خضم حرب شعواء قادها الكراهية.

ما غاب عن الوعي هو أن المنظور والمادي اتحد بغير المنظور والإلهي في تجسد ابن الله. ولذلك فعندما نتحدث عن "الناسوت"، أي ناسوت ربنا يسوع المسيح، ينتهي هذا الحديث إلى تجريد التجسد من الاتحاد بالإنسان، أي الجسد وكل مكوناته، ويتحول الجسد الإنساني إلى كلمة مجردة هي "الناسوت"، وبالتالي ضاع من الوعي حقيقة التعبير الإنجيلي "الكلمة صار جسداً وسكن فينا"، أي في إنسانيتنا، وهي الحقيقة التي جعلت القديس أثناسيوس يؤكد – في تعبير واضح – أن التجسد "قدَّس الجسد" (تجسد الكلمة ٤٣: ٦).

وعلى ذلك يكشف الاهتمام بالوثنية غياب الوعي بأن المادة دخلت في تدبير التجسد، وأن الإله المتجسد تجلى على الجبل المعروف حسب التقليد الكنسي القديم جداً باسم جبل طابور بنور ولمعان إلهي يضيء أكثر من الشمس[1]. ورغم محاولات إحياء عيد التجلي، إلاَّ أنها انتهت بالفشل، ربما لأنه يجيء في صوم العذراء، وربما لأن الثقافة الغالبة لم تعد تسمح بمكان مناسب لتجسد ابن الله، والأدلة على ذلك كثيرة، ولكن ما يهمني أن أؤكد عليه الآن هو أن إكرام وتقديس ما هو مادي مثل الصلبان والأيقونات، وقبل ذلك الإنسان نفسه الذي نال كرامة ابن الله، يرتبط أشد الارتباط بتجسد ابن الله، وذلك على الرغم من أن الثقافة الكنسية المعاصرة التي تتمثل في ثقافة الاستخفاف بالإنسان عموماً، وخصوصاً الطفل والمرأة، تهبط بهذه الكرامة إلى أدنى مستوياتها، وهو ما يتبدى في المعاملة المتعالية التي يبديها الإكليروس للشعب، واعتبار العنف هو الحل الأمثل لكل مشاكل التربية وانعدام العقلانية في شرح أسباب منع أشياء وتقيد الحريات خوفاً من الشك. وإذا كان الشك يؤكد الكفر عند غيرنا، إلاَّ أنه عند الرب نفسه هو "قلة إيمان"، أي إيمان غير ناضج، لذا كان توبيخ الرب يسوع

---

(١) راجع قسمة الأعياد السيدية للابن: "الذي تجلى على جبل تابور قدام تلاميذه القديسين وأضاء وجهه كالشمس". راجع أيضاً: مت ١٧: ١ –٩، مر ٩: ٢ – ٩، لو ٩: ٢٨ – ٣٦، ٢ بط ١: ١٦ – ١٨.

للرسل هو باستعلان قيامته، ولكنه لم يضرب بطرس الذي جحد الرب بقسم، ولم يرفض توما، بل كان إعلان المحبة في سؤال الرب لبطرس: "هل تحبني؟" كافياً لرد الوعي للرسول الساقط، وكان السماح لتوما بأن يلمس الرب كافياً لرد الإيمان، ولم نسمع التأنيب الذي بات من مكونات الثقافة المعاصرة.

وهكذا يمكننا أن نفهم لماذا كان يوليوس الإقفهصي يجمع أجساد الشهداء؟ لأنها المجال الذي أُستعلن فيه يسوع، وشهادة يسوع بالدم وبالموت. ولم يكن حفظ أجساد القديسين هو تكريم لمجرد التكريم، بل إعلاناً عن الشهادة، وأنها تمت في اللحم والدم.

لكن عندما نسمع الاتهام بالوثنية، فإننا يجب أن نتوقف قليلاً، ليس للرد على اتهام فارغ يكشف عن شخصٍ لا يؤمن بتجسد ابن الله، وإنما لإيضاح ثلاثة حقائق لا يجب أن تغيب بالمرة عن الوعي:

الحقيقة الأولى: إن المسيحية الحقيقية هي رسالة تكريم للإنسان، ورد الكون المادي الذي أُخضع للبطل إلى حرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١). لأنه من هذا الكون الذي نعيش فيه، سوف يولد الكون الجديد: السماء الجديدة والأرض الجديدة؛ لأن هذا الكون يمر بمخاض أليم موجع، وهو مخاض يجب أن يكون ليس فقط موضع اهتمام، بل تكريم وتقديس لمن جاء وسكن فيه بالجسد ولا زال يسكنه في أجساد ونفوس المؤمنين معطياً إياهم شركة في مسحته الإلهية بالروح القدس (١ يو ٢: ٢٠).

الحقيقة الثانية: هي أن استعلانات الثالوث في الأسرار الكنسية لا سيما سر الإفخارستيا هو استعلان إلهي في الكون والمادة، هو تحول الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه. وهي حقيقة غابت من فكر حركة الإصلاح في شكلها المتطرف عند زوينجلي، ولم ينكرها كالفن أو لوثر، وإنما ابتعدا عن الألفاظ اللاتينية السائدة والوافدة من العصر الوسيط الروماني. هنا بالذات الكل مدعو إلى هذه الشركة في الحياة الإلهية: الإنسان

الذي صار له وجود مماثل في جوهر الثالوث، أي في إنسانية يسوع المسيح الأقنوم الثاني، والكون الذي يدخل شريكاً في التسبيح حسبما نرى في المزامير وفي صلوات التسبحة، وعناصر الكون المادي مثل المياه وزيت الزيتون ... إلخ فقد تجلى ابن الكلمة الله ليرد للخليقة الفرح الضائع بسقوط آدم.

الحقيقة الثالثة: إن جيش الشهداء والقديسين الراقدين ليسوا مجرد أسماء تطبع في كتب، ولعل القارئ لا يدرك أن كلمة أيقونة وردت ٢٣ مرة في النص اليوناني للعهد الجديد، لكن الأيقونة – كما أشرنا، وكما هي في الحقيقة — هي صورة الله المطبوعة في اللحم والدم، أي الإنسان. وهي تطبع بعد ذلك على المادة؛ لأن بقاء القديسين أسماء مجردة على الورق هو محاولة لإبعاد هؤلاء من الحياة المنظورة الإنسانية التي دعيت للتجديد.

هذه الحقائق الثلاثة لها أساس واحد هو يسوع المسيح الإله المتجسد الذي حمل جسده معه إلى السماء. ولاحظ تعبير الرسول "أجلسنا معه في السماويات" (أف ٢: ٦)، حرفياً "المواضع السماوية" حيث تتحد السماء والأرض، وحيث يعود الكل إلى الله في يسوع المسيح آدم الثاني الرب من السماء.

فإذا كان هذا هو الوثنية، فماذا يكون إيمان صاحب هذا الادعاء سوى أن يسوع قد تحول إلى فكرة في عقله، وكلمة مطبوعة في كتاب أو ترتيلة تقال، أو عظة تحض على الأخلاق المسيحية الجيدة؟

إن كل ما أشرنا إليه يفقد شرعيته ما لم يكن ليسوع وجود حقيقي في جسد مجده (فليبي ٣: ٢١)، وجسد مستعلن في الأسرار وحياة تنسكب في المادة والروح، وعندما يغيب ذلك، يتحول الإيمان إلى هلع وفزع وخوف من الكون ومن الجسد. وصاحبنا د. حنين عبد المسيح ليس أفضل من بعض قادتنا الذين عادوا إلى شريعة موسى السابقة على تجسد ابن الله ونقلوا التطهيرات وفرائض طهارة الجسد إلى الحياة

الكنسية وزعموا أنها تعليم الكتاب المقدس، وهي فعلاً تعليم العهد القديم الذي لم يعد يلزم المسيحي حسب قرار مجمع الرسل ... لكن كل هذا ضاع وغاب؛ لأن الثقافة السائدة تحتقر الجسد وتراه في مستوى منحط، وهو ما يظهر في التمريض وفي التدريس وفي تطبيق النظام والقانون نفسه؛ لأن الإله المتجسد لم يدخل هذه الثقافة، بل هو لا زال بعيداً عن ثقافة الكنيسة التي تقدس أجساد الشهداء أكثر من أبناء وبنات الكنيسة، وتسبح والدة الإله بكل ما يمكن أن يقال من أعظم العبارات – وهذا حق وواجب – ولكنها تعامل المرأة باحتقار.

الفصل الخامس

ماذا يعني تجسد ابن الله في الحقيقة والواقع؟

بدايةً، الرب يسوع المسيح هو آدم الأخير – الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٥) جاء لكي يكون بدايةً جديدةً للجنس البشري. فهو الذي جمع في ذاته كل البشر، بل السماء والأرض معاً، كرأسٍ جديد (كولوسي ٢: ١٨) للخليقة الجديدة (٢كو ٥: ١٧).

هكذا دخل الله الحياة الإنسانية بتجسد الكلمة الذي تجسد وسكن بيننا أو فينا بالجسد (يوحنا ١: ١٤) ولاحظ كيف تحولت العلاقات التالية:

* علاقة الله بالإنسانية: صارت في المسيح كرب، كوسيط، كرأس.

* علاقة الله بالكنيسة: فالمسيح هو رأس جسده الكنيسة.

* علاقة الله بالمؤمنين: صار الرب في كل مؤمن، ليس كفكرة في العقل، بل كحياة وكشخص يسكن في القلوب (كولوسي ١: ٢٧)، وصار تكريم المؤمن لأخيه المؤمن هو تكريم للرب نفسه، لأن الرب "وحَّد" كيانه الإلهي المتجسد بالمؤمنين صانعاً في ذاته، الإنسان الجديد الواحد الذي ليس هو من اليهود ولا من الأمم (أفس ١: ١٥) بل من فوق، من الله الآب، حيث ينمو هذا الإنسان الجديد من الله نفسه (كولوسي ٢: ١٩).

هذه العبارات السابقة تصبح بلا مضمون بدون التجسد، وتكون بلا أساس بدون التجسد وهي تلزمنا بأن نكرِّم كلٍ الآخر، وأن يكون لدينا الاحترام والتقديس الذي يقدَّم للرب نفسه.

والذين يعتقدون بفكرة مجردة اسمها الإله المتجسد، هم هؤلاء الذين لا يظهر في شعورهم ووعيهم أن هذه الفكرة تتجسد في واقع حي هو الكنيسة، التي لم تكن في أي يوم من الأيام "جماعة مؤمنين" حسب تقوى الفولكلور الشعبي، بل هي جسد المسيح الحي، هي الكنيسة التي لا تفصل بين الرب وعلامات التكريم والوقار التي تشير إلى تجسد الرب مثل الصليب، وتقديم البخور للمؤمنين والأيقونات. هذه هي حقيقة الواقع نفسه الذي جاء فيه التجسد بإتحاد كامل بين اللاهوت والناسوت وبين غير المنظور والمنظور، بين الروح والمادة، بين السماء والأرض. ولو كان المتجسد في السماء البعيدة ذات "القبة الزرقاء"، أو لو كان يجلس على كرسي مجده في فضاء بعيد لقلنا إن تكريم ووقار علامات تجسده هي وثنية فعلاً بسبب "غياب المتجسد"، لكن ما أعظم تناقض هذا التعبير أي "غياب المتجسد"، إذ كيف يغيب من هو متجسد عن عالم الإنسان. مَن يكرم مؤمناً يكرم الرب نفسه، ولو كان المؤمن بدون الرب لتحوَّل الإكرام إلى شبه وثنية؛ لأن الإكرام شيء والعبادة شيء آخر.

لقد وصف المتطرفون من أتباع المذهب الوهابي نصارى العراق وسوريا ولبنان ومصر بأنهم من "عُبَّاد الصليب"؛ لأن "الوهابية" في شكلها ومضمونها هي أقصى حالات التوحيد الراديكالي الذي ينكر كل علاقة بين الله والكون، عندئذٍ يصبح أي تكريم للبشر – مهما كان نوعه – بمثابة ردة عن "التوحيد"، فهل يجوز لمن تربى في كنيسة المسيح أن يسلك ذات المنهج، وأن يصف تكريم الرب في طقوس الكنيسة وفي العلاقات الجديدة بأنها دعوة للوثنية؟ الجواب بكل يقين، لا يجوز؛ لأن هذا ينفي شركة الله في الإنسانية في تجسد ابنه الوحيد.

ولعل إنكار تجسد ابن الله، وغياب العلاقات الجديدة التي جاء بها تجسد ابن الله هو سبب الانحراف نحو "وهابية مسيحية" لا تأخذ إطلاقاً بالشركة ولا بالتجسد. وقد بدأت بواكير هذه الوهابية القبطية تظهر مبكراً في دعوة الناس إلى حياة أخلاقية سامية بدون الروح القدس، روح التقديس، وفي اعتبار النسك اقتراباً من الله، رغم أن الله هو الذي اقترب وصار كواحد منا، والنسك الحقيقي هو قبول هذه البشارة. كما ظهرت هذه الوهابية في العودة إلى شريعة التطهيرات في العهد القديم، وفرض هذه الشريعة على المؤمنين، ثم تطورت إلى الهجوم على كل ما له علاقة بالشركة في الطبيعة الإلهية، والتي تظهر معالمها في التعليم الرسولي كالآتي:

أولاً: في الشكل shape الخاص بالعلاقة العضوية:

الكرمة والأغصان (يوحنا ١٥: ١)، فهي علاقة عضوية لا يمكن للأغصان أن تحياها بدون الأصل – الجذر – ومن هنا جاءت كلمة أرشي arche بداية / رأس، ولذلك كُتب أن الرجل هو بداية المرأة أي رأس المرأة (أفسس ٥: ٢٣)، وبدايتنا نحن هو الرأس أي المسيح "رأس كل رجل هو المسيح"، ولأن رأس تعني بداية أو أصل؛ كتب الرسول "رأس المسيح هو الله" (١كو ١٢: ٣). و"الكرمة" هي الشكل الذي يستعان به كاستعارة؛ لكي ينقل بها المضمون إلى الواقع الإنساني – وهو بداية تكوين الإنسان حيث ينمو "الرأس" أولاً ومنه تنمو كل الأعضاء (كولوسي ٢: ١٩) – إلى الحقيقة الماثلة في الحياة الجديدة: الرأس، أي المسيح الذي منه ينمو كل الجسد.

ثانياً: في الاختبار الحي:

وهو ما يظهر عندما يلمس الإنسان جسده، ويرى فيه الجسد الواحد، رغم أنه مكوَّن من أعضاء كثيرة، إلاَّ أن الجسد يظل واحداً. وتصبح هذه الحقيقة الماثلة أمام الوعي، بل الراسخة في الوعي، هي ذاتها حقيقة الممارسة الكنسية، حيث يدرك الكل أنهم أعضاء في جسد واحد مركب من عدة أعضاء حسب شرح الرسول في (١كور

إصحاح ١٢ كله). هذه الحقيقة الراسخة تجعل الرسول يؤكد على أنه إذا كان الاختبار الإنساني الحي يجعل المؤمن يدرك أن جسده الواحد غير قابل للانقسام، ولا يمكن أن تدخل أعضاء الجسد الواحد في حرب أو صراع (١كو ١٢: ١٥ وما بعدها)، فإن الحقيقة التي يجب أن ترسخ في الذهن هي أن المسيح كذلك هو جسد واحد لا يمكن أن ينفصل منه عضو بسبب تنوع الأعضاء:

* الجسد واحد وله أعضاء كثيرة (١كو ١٢: ١٢).

* كل أعضاء الجسد الواحد رغم أنها كثيرة هي جسد واحد (١كو ١٢: ١٢)؛ لأنها من طبيعة واحدة.

* كذلك المسيح أيضاً (١كو ١٢: ١٢).

المثال: الجسد الإنساني الحي والراسخ في الوعي والملموس.

التطبيق: المسيح.

ثالثاً: في الأصل الإلهي السمائي:

إذا كان آدم الأخير هو الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٧)، فإن الحياة السمائية ليست فكرة، بل نحن "نحسب مثل (الرتب الملائكية) القائمين في السماء[١].

* الشركة حسب الطبيعة الواحدة (عب ٢: ١٤)، هي شركة الأولاد في اللحم والدم.

* الشركة في النعمة التي تؤهِّل للشركة في خدمة القديسين (٢كو ٨: ٣).

* شركة في الروح القدس (فيلبي ٢: ١ مع فيلبي ١: ٧).

---

(١) صلاة الساعة الثالثة الخاصة بحلول الباراكليت "إذا ما وقفنا في هيكلك المقدس نُحسب مثل القيام في السماء. يا والدة الإله أنت هي باب السماء (باب الهيكل الجديد السمائي)، والقيام في السماء هم رتب الملائكة (نقلاً عن كتاب حكمة الآباء للراهب سمعان بن كليل).

لكن لاحظ أن هذه الشركة هي من الآب في يسوع المسيح، وهي شـــركة أبدية.

وهذا هو الأصل الإلهي السمائي لها:

* الحياة أُظهرت.

* الحياة التي كانت عند الآب.

* أُظهرت لنا أي أُعلنت، وأيضاً أُعطيت؛ لأنها لم تكن "للفرجة".

* الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به.

لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.

* شركتنا مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (١يوحنا ٢: ١ – ٤).

* شركة حياة أبدية وشركة في المجد الآتي (١بطرس ٥: ١)

ولذلك نحن شركاء الروح القدس (عب ٦: ٤)؛ لأننا نشترك في قداسته، أي في قداسة الله نفسه (عب ١٢: ١٠)، وهذا هو أيضاً شركة الطبيعة الإلهية (٢بطـــرس ١: ٣ – ٤).

* شركة أيضاً في المذبح؛ لأن الذين يأكلون الذبائح هم شركاء المذبح، ونحن لنا شركة جسد المسيح، أي شركة الدم في الإفخارستيا وفي خبز الحياة (١كـــو ١٠: ١٥–١٨)، ولذلك يحذر الرسول: "لا تقدرون أن تشتركوا (أي تشربوا كأس الـــرب وكأس الشيطان) في مائدة الرب وفي مائدة الشياطين" (١كو ١٠: ٢١).

هكذا تعود الشركة إلى الأصل الإلهي، إلى شركة الروح القدس (١كو ١٣: ١٤)، وهي الشركة التي جاءت بها نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب.

الشركة والشِّرك والوثنية:

عندما يلغي التوحيد الراديكالي كل علامات ورموز واستعارات وأشكال شركة الله في حياة الإنسان، يفتح باب "الإلغاء" كل أبواب الاتهامات – وما أسهل الاتهامات – هي دفاع الأطفال عن خوفهم، لكن الله الذي أشرك حياته بنا هو الذي منح الإنسان هذه الشركة.

- الشرك في المحبة توحيدٌ صحيح.
- توحيد الثالوث الذي أشركنا في حياة يسوع المسيح.
- الشرك في المحبة بناء شركة.
- شركة المحبة تحفظ الحدود.
- تعبر هوة الموت وتعطي الخلود.
- يظل الله الثالوث مانحاً الوجود.
- يعطي الحياة وبالمحبة يجود.
- يظل الخالق، خالقاً.
- ويبقى المخلوق مخلوق.
- فصلت المحبة على الإتحاد الأقنومي في يسوع.
- ظل الناسوت كما هو من العذراء مولود.
- مُجد بكل أمجاد اللاهوت.
- وظل ناسوتاً.
- يحمل قوة القيامة.
- بعدم الموت يسود.
- هزم الجحيم.
- أقام الإنسانية فيه.

- أجلسها معه في السماويات.
- ألبس المؤمنين عزة الأبد.
- طوَّح إبليس وجهنم وما فسد.

غياب الشركة من راديكالية الإلغاء:

أشرك – يُشرك – وشركة، وباقي المفردات، هي إحدى كلمات اللاهوت المسيحي التي يمكن أن يطويها المد الفكري والثقافي الذي "يُجرِّم" الشركة، ويعتبر أن الشركة ذنبٌ عظيم. كانت هذه هي سقطة الأنبا شنودة الثالث الكبرى وحاول أن يُغطي هذه "اللطخة" بقرار حرمان كاتب هذه السطور[١].

ما هو جوهر المشكلة؟

أولاً: الثالوث هو **شركة** محبة إلهية بين أقانيم الثالوث. محبة مُعلنة في الابن بالروح القدس. مُعلنة للدعوة، ودعوة مطروحة للقبول، وقبول للشركة في هذه المحبة.

ثانياً: التجسد هو **شركة** الله في الإنسانية، **شركة** في ميلادنا عندما ولد، و**شركة** في موتنا لأنه مات لأجلنا، و**شركة** ترد الحياة لنا لأنه غلب الموت بالصليب وأظهر القيامة والخلود "وبالموت داس الموت".

ثالثاً: سكنى الروح القدس هي "**شركة** الروح القدس" (٢كور ١٣: ١٤)، **شركة** في شهادة الروح للابن لأن الروح هو واهب هذه الشهادة (١كو ١٢: ١-٣)، وشركة في بشارة الإنجيل لأن الروح هو الذي يعطي كلمته الحياة لأنه روح حياة

---

(١) راجع كتاب "بدع حديثة"، حيث يقول: "فهم يدعون إذن الشركة في اللاهوت!! ولعل هذا بعض مما يسميه أخوتنا المسلمون "الشرك بالله"!!

يسوع (رو ٨: ٢) وهو الذي يشركنا في ميراث المسيح (كولوسي ١: ١٢ – أفسس ٣: ٦)، هو واهب النعمة التي بدونها لا شركة لنا في المسيح يسوع.

الحد الفاصل بين راديكالية التوحيد وشركة الثالوث:

ما هو الحد الفاصل بين راديكالية التوحيد وشركة الثالوث؟

إنه حد ثنائي يمس الوجود الإنساني نفسه والكيان الإلهي؛ لأن كل خطاب عن الإنسان هو بالضرورة خطاب عن الله نفسه، فكل ما يقال عن الإنسان يحدد أو يكوِّن صورة عن خالقه لله. والعكس أيضاً صحيح، فكل ما يُقال عن الله نفسه يعطي لنا بشكل مباشر تعريفاً للإنسان من خلال العلاقة المعلنة من الله.

ما هو نوع هذه العلاقة حسب التعليم المسيحي الأرثوذكسي؟

أولاً: هي علاقة شخصية، أي أقنومية بين الله والإنسان.

تبدأ هذه العلاقة بالأساس الذي شُيِّد عليه اللاهوت المسيحي كله شرقاً وغرباً، وهي عقيدة الخلق من العدم، فهي أساس كل خطاب لاهوتي مسيحي أرثوذكسي.

لقد جئنا إلى الوجود من العدم، من لا شيء خُلق الإنسان، فالوجود والحياة والحركة هي من الله، هي هبة الحياة (أع ١٧: ٢٨). ولا ينكر التوحيد بكل صوره[١] خلق الإنسان من العدم، فهذه حقيقة ثابتة في كل كتابات الموحِّدين، ولكن التوحيد السلبي بنوع خاص يغفل – ربما عن قصد – خلق الإنسان على صورة الله ومثاله (تكوين ١: ٢٦). وقد نجد تعبير "صورة الله" عن عظماء الموحدين في مدارس

---

(١) حسب تاريخ العقيدة المسيحية يوجد نوعين من التوحيد: توحيد إيجابي يعرِّف الذات الإلهية ويشرح حياة الله نفسه، وتوحيد سلبي يكتفي بنفي الشرك وتعدد الآلهة.

التصوف مثل محي الدين ابن عربي، وجلال الدين الرومي، وغيرهما، ولكن لا يوجد لاهوت صوفي يحدد علاقة الإنسان بالله على أنها علاقة "الصورة"، أي الإنسان "بالأصل"، أي الله. أما الحقيقة الراسخة في التوحيد الإيجابي، وهو توحيد المسيحية – الذي يثلث أقانيم الجوهر الإلهي – فهو يقوم على تأكيد حقيقة راسخة، وهي أن كل اسم أو صفة أو لقب هو جزء من علاقة، وكل علاقة مع الله هي علاقة وُهبت من الله، فهي ليست علاقة لفظية قائمة على استعمال كلمات أو ألقاب أو صفات بلا مضمون أو بلا وجود أو بلا كيان. فقد رفض اللاهوت الأرثوذكسي هذا الاتجاه التجريدي منذ نهاية القرن الرابع بظهور البدعة "الأنومية"، وهي ثمرة البدعة الأريوسية. فقد حاربت "الأنومية" الأرثوذكسية في محاولة للفصل بين القوة والنعمة من جانب، وجوهر اللاهوت من جانب آخر. فهي صورة من صور توحيد يقطع كل أوصال العلاقة الأقنومية بين الله والإنسان، وهي ذات الصورة الأريوسية لتوحيدٍ عَزَلَ الآب تماماً عن الخليقة، وجرَّد الإعلان عن ذات الله في الابن من كل ما هو أزلي وحقيقي في الذات الإلهية عندما جعل الإعلان عن الآب، أي الابن يسوع المسيح مخلوقاً متميزاً عن باقي المخلوقات.

هكذا نعود إلى ما سبق وقررناه في السطور السابقة وهو:

* إن الإعلان الإلهي عن الله هو أساس كل خطاب عن الإنسان.

* إن تحديد طبيعة الإنسان ومكانته هو بدوره أساس كل خطاب عن علاقة الإنسان بالله.

لذلك، فـ"صورة الله ومثاله" ليست مجرد وصف لفظي يُستهان به؛ لأنه وصف عن الوجود الإنساني الحقيقي. فلا وجود حقيقي للإنسان بدون الصورة والمثال، بل حتى في حالات تفكك الصورة الإلهية في البشر الساقطين في الشرور، يظل في قلب كل واحد منهم قبساً أو لمحة من الصورة الإلهية يعبِّر عنها:

* طلب الجمال والسعي وراءه.
* العطش لحب حقيقي مثالي.
* البحث الدائب عن الكمال.
* السعي وراء الحقيقة رغم التكاليف.

حتى وراء يأس أشر الخطاة يكمن في قلب كل واحد منهم رغبة دفينة في النفس تظهر في الندم على الفشل في أن يكونوا بشراً، وفي الندم على ما فعلوه، وفي تمني أن يكون لهم حياة غير تلك الحياة التي عاشوها وأفسدوها. ذلك العطش للتغير وللتجديد والتمني يؤكد أن الإنسان – حتى في سقوطه – لا زال يحمل قبساً من صورة الله.

على أن الصورة الإلهية لا وجود حقيقي لها بدون علاقة مع الله، بدون علاقة شركة تعطي للإنسان مكانة عند الله كصورة الله ومثاله. ولا يمكن أن يكون للإنسان "صورة الله" بدون أن يكون له شركة مع الأصل وُصِفَت في تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس بأنها شركة (في القوة العاقلة لله الكلمة) (تجسد الكلمة ٣: ٣).

بل خُلق الإنسان لكي يكون "ظلاً للكلمة" (تجسد الكلمة ٣: ٣).

فهو يتبع الكلمة. هذه هي أول ملامح العلاقة الأقنومية بين أقنوم الكلمة الابن والإنسان الكائن كأقنوم يحمل الصورة الإلهية.

ثانياً: إن الخلق من العدم هو أساس الخطاب اللاهوتي عن "النعمة"؛

لأن الإنسان المخلوق من العدم لا يملك كيانه، ولا يمكن له أن يحدد "مصيره" بدون خالقه.

كانت هذه هي مشكلة آدم الأول: تحديد المصير بدون الله، تحديد الذات هو نفسه تحديد المصير؛ لأن الإنسان كمخلوق يصنع كيانه، كل أعمالنا تكوِّن وتطوِّر الكيان الإنساني الموهوب من الله. هذا هو ما حدث وما يحدث. والإنسان الذي لا

يصنع كيانه بالشركة في يسوع المسيح، لا يدرك أنه بدون الله "فارغٌ"، والفراغ هو الموت، هو النهاية أو المصير الذي اختاره آدم الأول والذي انتشر في الجنس البشري كله؛ لأنه وُلد "خارج الجنة"، أي "خارج علاقة الأقنومية". وهنا تأخذ قضية الوراثة دلالتها، فهي تؤكد حقائق قد تغيب في احتدام عواطف ومشاعر البحث عن سبيل الخروج من المأزق، هذه الحقائق هي:

* وحدة الجنس البشري؛ لأن البشر رغم وجودهم كأفراد إلاَّ أن هذا الوجود لا يمكن فهمه بالمرة بعزل كل فرد عن الآخر؛ لأننا نولد ونحيا مع غيرنا وليس فقط بمساعدة غيرنا، بل لأن وجودنا ذاته لم يأت من العدم، بل من العدم قبل الخلق، ولكن بعد الخلق بالولادة. ولعل تقدم علم الوراثة أظهر لنا حقيقة وراثة الصفات الشخصية لكل فرد مهما كان انتمائه الاجتماعي.

* وحدة الحياة العقلية؛ لأنها ليست ثمار جهد فرد واحد بعينه، بل هي ثمرة الشركة الإنسانية في التقدم أو حتى في النكوص والتراجع عن النمو وعن التطور.

هكذا سارت الإنسانية كلها عبر التاريخ، ترث اللغة، والعادات الأفكار، بل والمعتقدات نفسها[١].

الصورة الإنسانية حسب راديكالية التوحيد:

الصورة الإنسانية حسب راديكالية التوحيد ليست هي "صورة الله"، بل "صورة الإنسان". قد نجد فيها ملامح "الفطرة"، وهي ملامح مطلوبة وجيدة، ولكنها لا تحمل في داخلها سوى حدود "الفطرة"، فهي بلا تطلع لما هو أعلى وأسمى، بل تكتفي بالبقاء في دائرة "الطبيعة". لقد حفظت المسيحية الشرقية الأرثوذكسية أهمية

(١) وراثة الموت من آدم هو ما يؤكده اللاهوت الأرثوذكسي، أما وراثة الموت مع خطية آدم فهو ما يؤكده اللاهوت الغربي ابتداء من القديس أوغسطينوس وهو ما يكشف عنه تعبير "الخطية الأصلية".

الطبيعة الإنسانية، ولكنها أكدت على تطلع الطبيعة الإنسانية لأن يكون الإنسان شخصاً، أي أقنوماً. فلا طبيعة إنسانية نامية متطورة بدون أن يكون الإنسان شخصاً يسعى إلى ما هو أعلى وأسمى، فتدخل الطبيعة دائرة العلاقة الأقنومية لكي يرتفع الإنسان ثانياً نحو الأصل.

لقد جاءت راديكالية التوحيد ووُلِدَت من الخوف من الوثنية، وهو خوف حقيقي له تاريخ في كل شعوب الأرض التي عبرت مراحل الوثنية في حقبة من حقبات تاريخها، لكن ما هي دلالة الوثنية؟ هي البحث عن "إله" خاضع لسيطرة الإنسان. إله يمكن للإنسان أن يستخدمه كما يشاء في العبادة وفي السحر وفي الشعوذة لإرضاء النزوات الإنسانية لكي يصبح الإله "عبداً للإنسان". هكذا انقلب الوجود من صورة لله تسعى وراء الإله الحقيقي إلى صورة إنسانية تسعى وراء ما زيَّفه الإنسان عن نفسه. لقد جاء التوحيد الراديكالي لكي يضرب ويخلع الوثنية من جذورها، ولكنه مع نجاحه في خلع جذور الوثنية. خلع الصورة الإلهية أيضاً.

أوصال الشركة الإلهية الإنسانية حسب الكلمة المتجسد:

لم يفقد الإنسان الصورة الإلهية بالسقوط؛ لأنه كان قد أقيم قبل السقوط إلهاً للكون، ورغم تشوه تلك الصورة بعد السقوط إلا أنه ظل على حاله أيضا إلها للكون.

السقوط هو إنه أراد أن يكون ذلك الإله بدون الله.

"أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك ...

من هو الإنسان حتى تذكره

وابن آدم حتى تفتقده

تنقصه قليلاً عن ألوهيم[1] ..." (مزمور ٨: ٤).

---

(1) حسب الأصل العبراني.

وقد أكد مزمور (٨٢: ٦-٧) ذات التعليم.

من صلوات المزامير ندرك أن الإنسان هو "ملك الكون"، وأنه يقدم التسبيح مع كل الخلائق:

"اهتفي للرب يا كل الأرض ...

ليصيح البحر وملؤه

المسكونة والساكنون فيها

الأنهار لتصفق بالأيادي

الجبال لترنم معاً أمام الرب" (٩٨: ٤ - ٩ راجع مزامير ٩٩-١٠٠-١٠٤).

"ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت

ملآنة الأرض من غناك" (مز ١٠٤: ٢٤).

وبدأت الحقيقة تظهر أكثر بمجيء الكلمة، فهو قائد الكون الذي يحرك كل الكائنات نحو غاية وجودها (القديس أثناسيوس، الرسالة إلى الوثنيين ٤١: ٣)، فهو خالق كل الأشياء الذي "فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى .. الكل به وله قد خلق" (كولوسي ١: ١٦).

الكل به،

الكل له قد خُلق.

لقد جاء الكلمة ليس فقط من أجل خلاص البشر، بل لتجديد الخليقة التي تئن، ودخلت مخاض التجديد في انتظار انعتاقها من عبودية الفساد (رو ٨: ٢١ – ٢٢).

هكذا تدخل الخليقة الليتورجية مع الإنسانية المفتداة؛ لأن الكلمة المتجسد هو الرب ملك الخليقة الجديدة الذي يجمع تحت رأسه الكل ما في السموات وما على

الأرض (أفسس ١: ١٠). وبالرغم من ذلك، فقد غابت المياه، والأشجار، والأرض، والزروع، والحيوانات ... الخ. بل غاب نهر النيل من صلوات المتطرفين من الإنجيليين.

هكذا قُطعت أوصال الشركة.

فأصبحت الخليقة بلا نعمة لأنها خليقة ساقطة، حتى بعد التجسد، وبعد أن مشى الله بقدمي إنسان على الأرض!!

والإنسان صورة الله تُرك بعيداً عن الخطاب اللاهوتي. فُصلت الصورة عن الأصل، فكيف وما هي غاية التجديد؟

يقولون علانيةً: أقبل المسيح رباً ومخلصاً. هذا حسن ومطلوب، لكن ما هي علاقة الشركة الجديدة في المسيح؟ وأين هو وضع الإنسان الجديد الذي يقود الخليقة نحو الانعتاق؟ وأين المياه التي تقبل استدعاء الروح القدس، وهي ذات المياه التي اعتمد فيها يسوع؟ وأين ثمر الأرض الذي يقدم خبز الإفخارستيا مع عصير الكرمة ...؟

وهكذا يقف الأصوليون وفي يدهم الكتاب المقدس وحده بلا ليتورجية؛ لأن الفكر الأصولي هو فكر غير مسيحي، رغم كثرة كلمات وفصول الكتاب المقدس التي يقدمها هؤلاء سواء كان ذلك عن حسن نية، أو عن سوء نية: عن حسن نية لأنهم يظنون أنها الإيمان، وعن سوء نية لأنهم يسعون لهدم العبادة المسيحية الأصلية القديمة.

ما هي الأوصال التي قُطعت باسم الكتاب المقدس؟

ليست الخليقة فقط هي التي أصبحت خارج الشركة، بل طال الأمر أيضاً القديسين. هؤلاء ماتوا، وصارت الكنيسة بلا تاريخ، وحشروا شفاعة الرب يسوع وشفاعة الروح القدس في جدل عقيم كانت الغاية منه أن تفصل شفاعة الرب الكنيسة عن أعضائها الذين رحلوا عن هذه الحياة الفانية إلى الحياة الغالبة بالنعمة. وهكذا ساد

الموت من جديد على التاريخ، وأصبح للموت سيادة على القديسين، وجعلوا من الرب مجموعة أفكار تقال:

* فهو لا علاقة له بعلامة الصليب.
* وهو لا شأن له بالأيقونات.
* هو بلا مذبح وبلا هيكل.
* لا يقدم له البخور مع الملائكة والقديسين والشعب.
* الرب يجلس في السماء ومحبوس في كتب التراتيل لا توجد له علامة أو رمز على الأرض تشير إلى حقيقة تجسده.
* الإنسان ليس ملك الكون، والكون لا علاقة له بالصلوات.

مثال على غنوصية الأصوليين:

سمعنا ولا نزال نسمع من الأصوليين الإنجيليين الذين يدَّعون أنهم "كتابيون"، أي يتبعون الكتاب المقدس وحده: إن عشاء الرب هو ذكرى لما حدث في علية صهيون، هو ذكرى لعشاء الرب، هو فريضة أسسها المسيح نفسه.

ويندفع أصحاب الحماس الأرثوذكسي للرد ... ولكن دون الانتباه إلى أن الأساس الفلسفي هو غنوصي أصلاً، وليس كتابياً أي من الكتاب المقدس.

فالغنوصية في شكلها وجوهرها الفلسفي هي فصل الروح عن المادة، وفصل الإنسان عن الكون، وتقسيم الإنسان إلى ثنائية الجسد والروح، ثم تقسيم الله نفسه إلى إله خيِّر صنع عالم الروح، وإله شرير صنع عالم المادة المنظورة. الغنوصية كانت حاجزاً ضد انتشار إنجيل تجسد ابن الله، ولا زالت تظهر في مدارس اللاهوت والنسك.

أولاً: ما هو مضمون الذكرى في العهد القديم والجديد؟

١– لا يجب أن يغيب عن الوعي المعاصر أن الذاكرة في الثقافة المعاصرة شرقاً وغرباً هي "تذكُّر حدث عَبَرَ وانتهى، وما تبقَّى منه هو ما يمكن أن تتذكره"، مثل حرب ٦٧، أو الحرب العالمية الثانية، أو غيرها من أحداث لم يعد لها وجود في الواقع، وهي موجودة في العقل وحده، وحتماً في كتب التاريخ. لكن يبدو أن الكتابيين لا يميِّزون بين الثقافة السائدة والوحي المقدس.

يقول الله لبني إسرائيل عن الفصح: "ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب .." (خروج ١٢: ١٤). التذكار هنا ليس ذكرى لما حدث فقط؛ لأن صانع هذا الحدث هو الله، فالذكرى هنا هي – حسب الوحي – "تصنع هذه الخدمة (العبادة في أسبوع الفصح) في هذا الشهر ... وتخبر ابنك في ذلك اليوم قائلاً من أجل ما صنع إلى الرب حين أخرجني من مصر. وتكون لك **علامة** على يدك وتذكاراً بين عينيك" (خروج ١٣: ٦ – ٨). التذكُّر هنا هو خدمة، صلاة، جانب أساسي في العلاقة بين الله وبني إسرائيل، هي إحدى "أركان العهد"، فتحفظ هذه الشريعة في وقتها من سنة إلى سنة (خروج ١٣: ١٠).

٢– في العهد الجديد يقول الملاك لقائد المئة كرنيليوس: "صلواتك وصدقاتك صعدت تذكاراً أمام الله" (أع ١٠: ٥)، ولم يكن التذكار هنا أن الله تذكَّر كرنيليوس كما نتذكر نحن حدثاً ما، بل كانت أمام الله حقيقة جعلت الله ينظر إلى هذا الأممي لكي يفتح باب البشارة للأمم لقبول الروح القدس "وبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حل الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة" (أع ١٠: ٤٤)، فالله يذكر الذبائح والصلوات (مزمور ١٤١: ٢)، هي مثل البخور الصاعد إلى الله. وحتى في الكنيسة البخور ليس رمزاً للصلاة، بل هو علامة وجود العهد الأبدي بين الله والإنسان، فهو تقدمة تثبِّت الرجاء في قلوب المؤمنين.

ثانياً: التسليم الرسولي لعشاء الرب

إذا قرأنا بدقة التسليم الرسولي لعشاء الرب[١] نلاحظ أننا لا نجد في كلمات الرب نفسه في إنجيلي متى (٢٦: ٢٦ – ٣٠)، ومرقس (١٤: ٢٢ – ٢٦) عبارة "هذا اصنعوه لذكري"، وليس لدى الكتابيين أي تفسير لوجود هذه العبارة في التسليم الرسولي (١كو ١١: ٢٤) إلاَّ أن ما جاء في كرازة الرسول بولس كان هو التسليم الخاص بالحياة الليتورجية، أما ما ورد في الأناجيل، فهو التسليم التاريخي لما حدث فعلاً[٢]، فكيف نقل هذا التسليم إلى الممارسة الكنسية حسب التسليم أو التقليد غير المدون في أسفار العهد الجديد؟

كذلك الأمر، إذا سألنا كيف استطاع الرسل جميعاً – وبالذات بولس – حذف شريعة الختان في اليوم الثامن، وهو موضوع لم يذكره الرب يسوع نفسه لا نصاً، ولا حتى بإشارة ضمنية، ومع ذلك كان قبول الأمم يتم بدون إلزامهم بشريعة الختان (أع ١٥: ٢٠ – غلاطية ص ٢).

تحذير:

وهنا نسوق تحذيراً للكتابيين الذين يساندون الهجوم على عقائد المسيحية وتاريخها العريق الطويل استناداً إلى أخطاء البعض، فالمسيحية ليست هذا أو ذاك من الأساقفة أو القساوسة، وأخطاء البشر وخطاياهم أمر مسلم به لا يحتاج إلى إثبات، ولكن التعليم والإيمان لا علاقة له بخطايا وانحرافات قيادات كنسية.

---

(١) لم تعرف الكنيسة الجامعة ذلك الاسم الغريب "العشاء الأخير" الذي وفد مع كتابات عصر الإصلاح البروتستانتي، فقط لدينا اسم واحد في الكتاب المقدس وهو "عشاء الرب" (١كو ١١: ٢٠).

(٢) وردت عبارة "اصنعوا هذا لذكري" في لوقا (٢٢: ١٩)، باعتبار أن لوقا هو كما نعرف كان أول من دون التسليم الذي قبلته الكنيسة (لوقا ١: ١).

كذلك نلفت النظر إلى أن ما يصدر في الغرب من مؤلفات ليس هو الـــرأي النهائي أو آخر الأبحاث، بل كل موضوع هو ملف مفتوح للدراسة، والـــدليل علـــى ذلك أن الهجوم الذي بدأ في القرن السابع عشر انحسر في نهاية القرن العشرين، كمـــا أن حقائق التاريخ شيء وخيالات من يكتبون شيء آخـــر. والمـــزج بـــين الكـــذب والكراهية وقيادة حملات بغضة ضد المسيحية بدعوى دراسة تاريخية هو أمر مضحك؛ لأننا في بلدنا العظيم أهملنا دراسة تاريخنا وتركنا وثائق التاريخ وأصبح لنا مزاج غريب في المزج بين الخيال والوهم والمطامع التي نريد أن نحققها لأنفسنا.

"اصنعوا هذا لذكري" (١كو ١١: ٢٤ – لوقا ٢٢: ١٨ – ١٩)

* لم يقل الرب هذا ذكر عشائي – أو موتي – أو .... الخ، بل ذكرى أنـــا remembrance of me

* كما أن الفصح لم يكن ذكرى لخروج بني إسرائيل، بل ذكرى عمل الله.

* فالذكرى هي عمل إلهي من جانب الله، واحتفال إنساني بما يفعله الله. وما فعله الله ليس حدثاً يستحضر في الذاكرة حسب سيكولوجية الإنسان الأوروبي. لذلك كانت الذبائح "a'zkarah"، أو حسب الترجمة السبعينية "تذكاراً" (لاويـــين ٢: ٢ – ٢: ٩ – ٢: ٤ وغيرها)، أي تذكار للرب نفسه. في هذا الإطار الكتابي نفسه ذكـــر التسليم الرسولي كما دونه لوقا وبولس "اصنعوا هذا لذكري"، وسجَّل لوقا التكـــوين الرسولي لليتورجية: "ابتداء من موسى وجميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب" (لوقا ٢٤: ٢٧)، ثم "أخذ الخبز وبارك وكسر وناولهمـــا" (لوقـــا ٢٤: ٣٠).

"فصحنا المسيح قد ذبح لأجلنا" (١كو ٥: ٧)

سكب الدارسون من كل المذاهب كميات كبيرة من المداد بكل الألوان حول العشاء الرباني الذي أُسس في أسبوع الفصح، ابتداءً بما سجله الرسول بولس حتى رسائل الفصح لأساقفة الإسكندرية، وبشكل خاص أثناسيوس الرسولي، وكيرلس الكبير.

ومن التسليم الليتورجي والتسلسل التاريخي تبين لنا أن لغة Melito أسقف ساردس في الجيل الثاني لا تختلف عن لغة القديس أثناسيوس في الجيل الرابع. كما وجدنا أنفسنا أمام هذه المفردات: المائدة – المذبح – الحمل – الفصح – المن – خبز الله النازل من فوق.

ومن التسليم الليتورجي نعرف أن مائدة الرب هي فصح الكنيسة، فصح الأمم، وأن مائدة الرب هي المذبح، وأن الفصح هو الحمل، وأن المسيح هو حمل الله، وهو أيضاً المن السماوي، وكذلك هو خبز الله النازل من فوق.

الفصحُ كان ذبيحةً لكي "يعبر ملاك الموت"، ولكن الفصح كان وليمةً أيضاً (خروج ١٢). وقد أكل الرب الفصح مع تلاميذه الإثنى عشر، وحضر يهوذا العشاء الرباني، وقبل ذلك غسل الأرجل.

وهنا يبرز الخلاف الذي ثار بين الشرق الأرثوذكسي، والغرب البروتستانتي حول المذبح ومائدة الرب، فمائدة الرب طبقاً لمنهج الشرق الأرثوذكسي:

- المائدة هي فصح وذبيحة؛ لأن المسيح قد ذُبِحَ.
- ومائدة الرب (١كو ١٠: ٢١) هو الاسم الذي احتفظت به القداسات.
- "الحمل" أو بدقة "حمل الله" هو أحد ألقاب الرب يسوع. وعندما قال يسوع خذوا كلوا هذا هو جسدي، فقد كان يقصد أنه هو حمل الفصح، حمل الله الذي يرفع خطية العالم.

كما أن المذبح هو عطاء الرب لذاته، أي جسده ودمه، والمائدة هي خبز الله النازل من فوق، ولذلك حفظت الليتورجيات الأرثوذكسية اسم المائدة للتأكيد على أن الموضوع عليها هو خبز الله النازل من فوق من عند الآب. ولكن رفض البروتستانت مبدأ وتعليم المذبح؛ لأن المسيح ذُبِحَ على الصليب، وبذلك لا توجد ذبيحة على المذبح؛ لأن الرب "دفع الثمن" وأكمل الكفارة يوم الصلبوت.

هنا الخلاف واضح، ولكن اسم "مائدة الرب" يؤكد لنا ثلاث حقائق:

أولاً: كمال وتمام وعد الرب بأن يعطي جسده خبزاً للحياة.

ثانياً: بقاء المائدة كوليمة سماوية يدعونا إليها المسيح نفسه في نداء الرب: "خذوا كلوا هذا هو جسدي".

ثالثاً: المائدة هي مائدة الملكوت، وهي تفسر لنا الكثير من طقوس القداس على النحو الذي شرحناه في كتابنا "القداس الباسيلي"[١].

كذلك يؤكد لنا اسم "المذبح" أيضاً ثلاث حقائق:

أولاً: عطاء المسيح وذبحه لذاته بالإرادة قبل خلق العالم.

ثانياً: تقديم هذه الذبيحة بواسطة الكنيسة لكي ندخل نحن إلى ذات شركة الذبح لكي نُذبح معه ونموت معه.

ثالثاً: لا يمكن لأحد أن يأكل جسد الرب ويشرب دمه إلاَّ إذا كان للذبح وجود يؤكده "المذبح"؛ لأن عطاء الجسد والدم هو عبور الرب حاجز الموت على الصليب وكسر شوكة الموت وإعلان الخلود بالقيامة؛ لأنه هكذا صار إلينا الخلاص ليس بموت الرب وحده، ولا بقيامته وحدها، ولا بتجسده وحده، وإنما بعمل المسيح الواحد المتعدد الذي يلاشي الانفصال بين الله والإنسان بالاتحاد الأقنومي، والذي يبيد

---

(١) راجع كتابنا: شرح القداس الباسيلي، منشور على موقع www. Coptology.com

الموت على الصليب، ويعلن الحياة بالقيامة. ونحن نأخذ هذه الأفعال الثلاثة في الـــرب الواحد غير القابل للانقسام، فنحن نأخذ نعمة اتحادنا به بسبب تجسده، ونأخذ عطية هزيمة الموت والدينونة بسبب صلبه، ونأخذ هبة الخلود والحياة الأبدية بسبب قيامتـــه؛ ولذلك تقول صلواتنا الليتورجية: "يعطى عنا خلاصاً وغفراناً للخطايا، وحياةً أبدية لمن يتناول منه"، لتأكيد عمل الرب فينا الذي يُوهب لنا في الإفخارستيا.

* فالمذبح والمائدة معاً هما معاً العطاء الإلهي للحياة الأبدية.

وهكذا يتضح لنا أن صراع مدارس التفسير حول كلمات الـــرب في إنجيـــل يوحنا ص ٦ (٦: ٥٣ – ٥٦) لا مبرر له. كان حديث الرب بعد معجـــزة الخبـــز، وانتهى الحديث في مجمع كفر ناحوم، وكانت المناسبة هي فصـــح اليهـــود (٦: ٤). والاحتفال بعيد الفصح كان احتفالاً بنزول المن، وهو ما جعل الرب يقول إنه هو "المن أو الخبز من السماء" (٦: ٣٢). ولم يكن الكلام عن الإيمان بالمرة حسب إدعاء بعض المفسرين[١]؛ لأن الرب ذكر الجسد والدم، وكلتا الكلمتان "جسد" و"دم" لا يمكن أن يصبحا رمزاً (يوحنا ٦: ٥٤)، بل هما يسوع المسيح نفسه خبز الله النازل من فـــوق، الواهب الحياة للعالم (يوحنا ٦: ٦٣).

* فالذبيحة والمذبح والكاهن والمائدة لا يمكن فصلهم.

الفصحُ عيدٌ دائم

في شرح ذهبي الفم لكلمات الرسول يلفت القديس يوحنا ذهبي الفم النظـــر إلى أن هذا العيد هو:

---

(١) راجع ص ٣٧١ في الطبعة الخامسة لكتاب:
Alan Richardson, An Introduction to the Theology of the NT.

"عيد لكل أيام حياتنا. ومع أن الرسول قال: "لنُعيِّد"، فهو لم يكن يقصد مناسبة معينة مثل الفصح أو العنصرة، وإنما كان يقصد عيد المسيحيين الدائم. هذا العيد الذي يفوق كل الأعياد لأجل ما وُهِبَ فيه من عطايا فائقة وصالحة. لأجلنا تجسد ابن الله. وحررنا من الموت ودعانا إلى الملكوت ... إنه عيد دائم لكل أيام الحياة، ولذلك قال الرسول: "افرحوا في الرب كل حين" (فيلبي ٤: ٤). في العيد لا يلبس أحدٌ منَّا ملابس قذرة؛ لأن وليمة العرس قد أقيمت، العرس الروحي، لأن الرب قال: "إن ملكوت السموات يشبه ملكاً صنع وليمة عرس لابنه" (متى ٢٢: ١)، وهنا العرس، وهنا الوليمة التي صنعها الملك لابنه، فهل يوجد عيد أعظم من هذا العيد؟ ..." (عظة ١٥ على ١كو ٥: ١-٧ راجع الترجمة الإنجليزية ص ٨٥ - ٨٦).

تداعيات فصل الرأس عن الجسد:

عندما تحول الرب يسوع إلى فكرة في عقول الذين يدَّعون الإيمان به دون الشركة في حياته وموته وقيامته، تم فصل رأس الكنيسة (المسيح) عن الكنيسة، أي الرأس عن الجسد، ودخل هؤلاء في نفق الغنوسية المظلم، وهكذا وجدوا أنفسهم أمام التداعيات الآتية:

١- عزلة المسيح عن جسده، فهو غائب في السماء، فُصل عقلياً في عقول غنوصيي القرن الحادي والعشرين.

٢- تحول الإله المتجسد إلى عالم الروح وحده وترك العالم المادي المنظور: الكون – الكنيسة – الإنسان، فالمسيح الرب لم يعد لجسده الممجد في السماء (فيلبي ٣: ٢١) أية علاقة لا بالأرواح الإنسانية، ولا بأجساد المؤمنين بالمرة إلاَّ من خلال الفكر، واختفى الاتحاد الأقنومي في الرب الواحد المتجسد وضاع؛ لأن المسيح أصبح

فكرة لا تظهر إلاً في التراتيل، ولا علاقة له بالمؤمنين إلاً من خلال الوعظ والصلاة، وهي علاقة يقولون عنها إنها علاقة (روحية)، في حين أنها في الواقع ليست علاقة روحية، بل عقلية فقط، إنسانية تماماً، بلا استعلان للمسيح بالروح القدس، ولكن دخلت كلمة "روحانية" في الأحاديث والعظات، وتحولت من "روحانية" مصدرها وأساسها الروح القدس، إلى "روحانية" صوفية غنوصية؛ لأن المسيح له المجد ليس حاضراً في جسده يملأه بالروح القدس ويغذيه روحياً وجسدياً، وإنما على مستوى العقل والأفكار.

٣– هذا كله عائد إلى غياب الأسرار، وإلى انعدام العلامات، فقد أصبحت "علامة ابن الإنسان" (متى ٢٤: ٣٠)، أي الصليب المكرم بلا تكريم وبلا دلالة، وهكذا صوَّب الغنوسيون سهم الوثنية نحو "عرش رب المجد الذي صعد عليه لكي يملك على الأحياء والأموات بالمحبة".

هكذا نخر سوس العصر الوسيط، ومنظومات لاهوت العصر الوسيط في حياة الكنيسة، فأفرز التعليم د. حنين عبد المسيح، كما أفرز هجوم الأنبا شنودة على الأب متى المسكين وكاتب هذه السطور، وأصبح معنى كلمة "إنسان روحاني" أنه الإنسان الخانع الذليل المقهور، وليس الإنسان "المملوء من الروح القدس".

وعندما غاب الروح القدس الرب المحيي عن إعلان يسوع المسيح رباً ومخلصاً في الكنيسة، تحولت الطقوس إلى علامات غامضة، وصار البخور أكثر غموضاً؛ لأن التعليم بالوليمة الملوكية غاب بدوره.